

الباب الرابع

الولاية ومشاكل السياسة

- الفصل العشرون : يوم الغدير (507 – 536).
- الفصل الحادي والعشرون : وفاة رسول الله (ص) (537 – 560).
- الفصل الثاني والعشرون : ما بعد رسول الله (ص) (561 – 610).
- الفصل الثالث والعشرون : فاطمة الزهراء (ع) (611 – 648).
- الفصل الرابع والعشرون : حياة الامام (ع) في عهد الخلفاء (649 – 690).

الفصل العشرون

يوم الغدير

الإمام ويوم الغدير* الدلالات العلمية للنصوص* (من كنتُ مولاه فعليّ مولاه): انتقال الصلاحية الشرعية* معاني الغدير:
1- نظرية الصفوة الدينية لا النخبة الإجتماعية: أ- الفوارق بين النخبة الإجتماعية والصفوة الدينية. ب- وظيفة الصفوة الدينية. ج- ديمومة الصفوة. 2- التخطيط الاجتماعي ما بعد رسول الله (ص). 3- الاندماج الدائم بين النبوة والإمامة. 4- نظرية القرار.

الامام (ع) ويوم الغدير

قرر رسول الله (ص) الخروج الى الحج في السنة العاشرة من الهجرة. واذن في الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به في حجته تلك التي وصفت بالها حجة الوداع، وحجة الاسلام، وحجة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام. ولم يحج غيرها منذ الهجرة من مكة الى المدينة. فخرج (ص) من المدينة مغتسلاً متدهناً مترجلاً متجرداً في ثوبين صحاريين إزار ورداء. وكان الخروج من المدينة في الخامس او السادس من ذي القعدة، واخرج معه نساءه كلهن في الموادج. وسار معه اهل بيته، وعامة المهاجرين والانصار، وجمع كبير من قبائل العرب وافناء الناس¹.

وقيل انه خرج معه مائة وعشرون الفاً من الناس، وربما اقل او اكثر. ولكن عدّة من خرج معه كانت في حدود تلك الدائرة. واما الذين حجوا معه فاكثروا من ذلك منهم المقيمون في مكة والذين اتوا من اليمن مع امير المؤمنين علي (ع) وابي موسى².

ولما قضى (ص) المناسك انصرف راجعاً الى المدينة ومعه من الجموع ما ذكر، فوصل الى غدير خم من الجحفة التي تنتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة. وفيها نزل عليه الوحي بقوله: (ياايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك...)³. وأمره ان يقيم علياً (ع) علماً للناس ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على المسلمين.

وكان اوائل القوم قرييين من الجحفة فأمر رسول الله (ص) ان يردّ من تقدّم منهم ويجبس من تأخر عنهم في ذلك المكان. ونودي بصلاة الظهر فصلّى بالناس. وكان يوماً هاجراً يضع الرجل بعض رداءه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، وظلل لرسول الله (ص) بثوب على شجرة سمرة⁴ من الشمس. فلما انصرف (ص) من صلاته قام خطيباً وسط القوم على اقتاب الابل وأسمع الجميع، قائلاً:

(الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور انفسنا، ومن سيئات اعمالنا الذي لاهادي لمن ضلّ، ولا مضلّ لمن هدى. واشهد ان لا اله الا الله، وان محمداً عبده ورسوله.

اما بعد : ايها الناس قد نبأني اللطيف الخبير انه لم يعمر نبي الا مثل نصف عمر الذي قبله، واني أوشك ان أدعى فأجيب. واني مسؤول وانتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون ؟
قالوا : نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

¹ الطبقات الكبرى - ابن سعد ج 3 ص 225. وارشاد الساري ج 6 ص 429. ونقلها الشيخ الاميني في كتاب الغدير ج 1 ص 9.

² تذكرة خواص الامة - سبط ابن الجوزي ص 18. والسيرة الحلبية ج 3 ص 283.

³ سورة المائدة: الآية 67.

⁴ السمرة: ضرب من شجر الطلح.

قال (ص) : أستم تشهدون ان لا إله الا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وان جنته حق، وناره حق، وان الموت حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور ؟
قالوا : بلى نشهد بذلك.

قال (ص) : اللهم اشهد. ثم قال (ص) : ايها الناس الا تسمعون ؟
قالوا : نعم.

قال (ص) : فاني فرط على الحوض، وانتم واردون عليّ الحوض، وإن عرضه ما بين صنعاء وبصرى. فيه اقداح عدد النجوم من فضة. فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين⁵ ؟
فنادى مناد : وما الثقلان يا رسول الله ؟

قال (ص) : الثقل الاكبر كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بايديكم فتمسكوا به لا تضلّوا. والآخر الاصغر عترتي. وان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فسألتُ ذلك لهما ربي. فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم اخذ بيد علي (ع) فرفعها حتى روي بياض آباطهما وعرفه القوم اجمعون. فقال (ص) : ايها الناس من اولى الناس بالمؤمنين من انفسهم ؟
قالوا : الله ورسوله اعلم.

قال (ص) : ان الله مولاي، وانا مولى المؤمنين، وانا اولى بهم من انفسهم. فمن كنت مولاه فعلي مولاه. يقولها ثلاث. ولفظ احمد بن حنبل : اربع مرات. ثم قال (ص) : اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

ثم لم يتفرقا حتى نزل الوحي بقوله : (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي...)⁶. فقال رسول الله (ص) : الله اكبر على اكمال الدين، واتمام النعمة، ورضى الرب برسالي، والولاية لعلي من بعدي⁷.

ثم طفق القوم يهتفون امير المؤمنين (ع) وممن هنأه في مقدم الصحابة : الشيخان ابو بكر وعمر، كل يقول: بخ بخ لك يا ابن ابي طالب اصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. وقال ابن عباس:

⁵ الثقل : الشيء النفيس والخطير.

⁶ سورة المائدة: الآية 3.

⁷ اسد الغابة ج 3 ص 307، ج 5 ص 205، والاصابة - ابن حجر ج 3 ص 408. ونقل صاحب (الغدیر) مصادر واقعة الغدير من مصادر الفريقين ج 1 ص 15-

وجبت والله في اعناق القوم.

فقال حسان : إئذن لي يا رسول الله ان اقول في عليّ ابياتاً تسمعهن. فقال : قل على بركة الله. فقام حسان فقال : يامعشر مشيخة قريش أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية ثم قال⁸ :

يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيَّهُمْ *** بِحَمٍّ وَأَسْمَعُ بِالنَّبِيِّ مُنَادِيَا
وَقَدْ جَاءَهُ جَبْرِيلُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ *** بِأَنَّكَ مَعْصُومٌ فَلَا تَكُ وَإِنِّيَا
وَبَلَّغَهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ رَبَّهُمُ إِلَيْكَ *** وَلَا تَخْشَ هُنَاكَ الْأَعَادِيَا
فَقَامَ بِهِ إِذْ ذَاكَ رَافِعٌ كَفَّهُ *** بِكَفِّ عَلِيٍّ مُعْلِنُ الصَّوْتِ عَالِيَا
فَقَالَ : فَمَنْ مَوْلَاكُمْ وَوَلِيِّكُمْ؟ *** فَقَالُوا وَلَمْ يَبْدُوا هُنَاكَ تَعَامِيَا
: إلهك مولانا وأنت ولينا *** ولن تجدن فينا لك اليوم عاصييا
فقال له : قم يا عليُّ فإني *** رضيتك من بعدي إماماً وهادييا
فمن كنت مولاهُ فهذا وليُّه *** وكن للذي عادى علياً معادييا
فياربُّ أنصر ناصرِيه لنصرهم *** إمام هدى كالبدْر يجلو الدياجييا

الدلالات العلمية للنصوص

- 1- كان رسول الله (ص) كان يعني نفسه في مناسبات عديدة قبل وفاته. فقد نعى نفسه في حجة الوداع، واوصى وصاياه الشهيرة في المرض الذي توفي فيه. وكان التلازم بين نعي الذات او قل التنبؤ بالرحيل الى الرفيق الاعلى وبين اعلان ولاية علي (ع) يعني انتقال الولاية على الامة من النبوة الى الامامة. وقوله (ص): (من كنت مولاه فعليُّ مولاه)⁹ يعني انتقال جميع صلاحيات الولاية التي كان يتمتع بها النبي (ص) الى الامام (ع) عدا الوحي. وهذا يعني استمرار المسيرة الاسلامية على نفس الخط المرسوم من قبل السماء.
- 2- كان استخلاف علي (ع) على المدينة خلال غزوة تبوك كافياً لاعداد الرأي العام لولايته. فلايد ان يكون ما حصل في غدِير خم عملاً متوقِعاً. فالمعادلة واضحة وطرفاها متوازيان. وهما: التنبؤ من قبل النبي (ص) بقرب رحيله الى عالم الآخرة، والوصية لعلي (ع) بادارة الامر من بعده (ص).

⁸ علم اليقين - الكاشاني، ص 142. نقلها عن رواية منهم سليم بن قيس.

⁹ الاصابة - ابن حجر ج 3 ص 408.

(من كنتُ مولاه فعلي مولاه) : انتقال الصلاحية الشرعية

عندما وقف رسول الله (ص) في غدِير خُم مخاطباً المسلمين : (من كنتُ مولاه فعليُّ مولاه)¹⁰ ، كان يعلن انتقال الصلاحية الشرعية بعد وفاته (ص) من النبوة الى الامامة. وانتقال الصلاحية الشرعية يقتضي انتقال القيادة الاجتماعية والسياسية من محمد رسول الله (ص) الى علي بن ابي طالب (ع). ذلك ان الصلاحية الشرعية في ولاية امر المسلمين، بما فيها حقوقهم وواجباتهم وعباداتهم ومعاملاتهم، كانت تعني سريان قيادة رسول الله (ص) للمجتمع الاسلامي، الا انه لا نبي بعده (ص).

فمن اجل ان تستمر المسيرة الاسلامية الى يوم القيامة، كان لابد من التوصية بامر الدين الى من له الاهلية والكفاءة في تحمل المسؤولية الشرعية في ادارة المجتمع. فمحمد (ص) خاتم الانبياء اوصى لعلي (ع) بأمره المؤمنين بعد وفاته (ص) امام اضخم تجمع للمسلمين يحصل ابدأ في ذلك الزمان، وهو تجمع غدِير خُم قبل افتراق الطرق المؤدية الى اوطان المسلمين. ولكن المشكلة التاريخية بقيت قائمة، وهي ان نظرية انتقال الصلاحية الشرعية من جيل الى آخر استبطنت صراعاً اجتماعياً بين الاجنحة الفاعلة في المجتمع.

1- الطموح والصراع نحو الخلافة:

ولاشك ان تنامي قوة المسلمين وتزايد عددهم واتساع مساحة دولتهم كان يغذي الطموحات نحو ابعاد علي (ع) عن وصاية رسول الله (ص) وخلافته. ذلك لان النضج العام لم يكن قد وصل حداً يستطيع التمييز فيه بين الحق والباطل او بين الخير والشر.

وقد اصبح الطموح نحو السلطة السياسية بعد مجيء الاسلام الى الجزيرة العربية اكبر حجماً واعظم وزناً، ذلك لان السلطة اصبحت كبيرة وضخمة بضخامة الاسلام وقدرته على تعبئة الامم للنهوض من سباتها ضد الشرك والظلم. فلو كانت السلطة زمن الجاهلية تقاس بدرجة واحدة، فانها اصبحت بعد ظهور الاسلام تقاس بمائة درجة. لان الاسلام استوعب او في طريقه لاستيعاب العالم القديم باجمعه.

ولذلك اصبح الصراع الاجتماعي من اجل الفوز بالجائزة الدنيوية العظمى اشد شراسة من اي زمن مضى. فلا عجب ان يؤكد رسول الله (ص) مرات عديدة بان علياً (ع) هو اخاه ووليه وناصره ورافع لوائه، وانه منه بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعده وانه خليفته بعده (ص)، وغيرها من الصفات التي تدلّ على انه (ص) كان يهيأ الأمة لولاية علي بن ابي طالب (ع) الذي جمع كل صفات الولاية الشرعية والامامة الحقّة.

¹⁰ الاصابة - ابن حجر ج 3 ص 408.

لقد أصبح المجتمع الاسلامي بعد حجة الوداع مجتمعاً عظيماً يمتلك القدرة الدينية والسياسية والاجتماعية للتأثير على بقية الشعوب والامم، وجلبها الى حضيرة الاسلام، بالسلام او بالحرب.

2- مراحل انتقال الصلاحية الشرعية:

ان اعلان انتقال الصلاحية الشرعية من رسول الله (ص) الى امير المؤمنين (ع) في غدير خم لم يكن وليد يومه. بل كانت هناك مقدمات تاريخية وشرعية تثبت ان الاعلان كان نتيجة فلسفية لتلك المقدمات التي مرت بمراحل، منها :

المرحلة الاولى: الوجود بالقوة. فقد كان علي (ع) يمتلك امكانية كامنة على تحمل مسؤولية الولاية الشرعية وادارة المجتمع الاسلامي بعد وفاة رسول الله (ص). ذلك انه كان الارض الخصبة التي انبت فيها النبي (ص) كل ما يستطيع انباته من شجاعة وحلم وعلم واخلاق وطهارة وعفة وزهد وتقوى وفصاحة. بحيث كان موقع علي (ع) من النبي (ص) موقع المرأة المتألثة، والصوت القوي، والسيف المنافع عن الحق، والشخصية الاسلامية المثلى لامتدادات نبي الرحمة (ص). فكانت تلك الامكانية الهائلة موضع نظر المسلمين، والمشركين، والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض على حد سواء. ولم يكن للآخرين مثل او شبيه لتلك الامكانية.

المرحلة الثانية: الوجود بالفعل. فقد كان نمو قوة علي (ع) الاجتماعية نمواً طبيعياً، خصوصاً: في المعارك الطاحنة التي خاضها ضد الشرك، وفي حفظه القرآن المجيد وادراك باطنه وظاهره، مجمله ومبينه، محكمه ومتشابهه، ناسخه ومنسوخه، وتعليمه المسلمين، وفي زواجه بسيدة نساء العالمين (ع)، وتبليغه سورة براءة في حج السنة التاسعة، ودعوته الناس للاسلام في اليمن، وفي توليته على المدينة من قبل رسول الله (ص) في غزوة تبوك، وفي اعلان الولاية الشرعية في غدير خم. كل ذلك اعطى الامام (ع) قوة اجتماعية ودينية، تجعل انتقال الصلاحية الشرعية من النبوة الى الامامة انتقالاً طبيعياً لا يزلزل تلك الامة التي لا تزال حديثة عهد بالدين وباحكامه وبعادته ونظافته الاخلاقية.

وانتقالاً بهذا الحجم — اقصد بحجم النبوة التي يوحى لها والامامة المعصومة التي لا يوحى لها — يحتاج

الى امرين مترابطين ترابطاً شديداً :

الاول: امضاء ذلك من قبل صاحب الرسالة، وهو النبي (ص)، واعلانه الى الجمهور العريض والامة الواسعة. وقد حصل ذلك يوم الغدير بالخصوص.

الثاني: ان يكون الاعلان عن انتقال الصلاحية الشرعية في حياة رسول الله (ص) وقبل وفاته (ص) وعلى لسانه الشريف (ص) حتى يطمئن الناس لصلاحية ذلك الانتقال. وقد حدث كل ذلك امام الملاء العام.

المرحلة الثالثة: نضوج فكرة الامامة والولاية الشرعية في اذهان الناس، بحيث ان يوم الغدير — وهو يوم اكمال النعمة واتمام الدين — لم يحمل اعتراضاً وجيهاً حملة لنا التأريخ. بل كان ابو بكر وعمر من اوائل من هنا الامام (ع) بأمره المؤمنين. كيف لا، وان رسول الله (ص) قال وهو يعنى نفسه: (اني اوشك ان ادعى فاجيب داعي الله). وفيه دلالة على ان انتقال الصلاحية الشرعية كان امرأً طبيعياً عند وفاة رسول الله (ص) وانتقاله الى عالم الخلود. واي غرابة في ذلك، وان الرسل والانبياء (ع) تركوا الدنيا وانتقلوا جميعاً الى عالم الآخرة.

ولكن نضوج فكرة الامامة في اذهان المسلمين لا يعني قبولها والتسليم بها دون معارضة وطموحات شخصية، كما اشار تعالى: (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم...)¹¹. وكما وصفها... يوم السقيفة: (وكان كل منهم يتمناها لنفسه)¹². وعلى اي تقدير، فان انتقال الصلاحية الشرعية في دولة اسلامية كدولة النبي (ص) كان له تأثيراً كبيراً على استمرارية النهج الديني والسياسة العامة وتعيين الولاة والعلاقات الاجتماعية وحفظ الثروة الاجتماعية وبيت المال وقضايا التجارة والحروب.

معاني الغدير

لاشك ان لواقعة غدير خم معاني عظيمة يمكن استخلاصها من الملامح الدينية والاجتماعية لتلك الفترة الحساسة من تأريخ الاسلام. ويمكننا النظر الى تلك الواقعة باعتبارها حادثاً يخص الامة الاسلامية لقرون مديدة. حيث كان من المفترض عقلاً ان يطرح النبي (ص) تخطيطاً متكاملأً لادارة المجتمع الاسلامي بعد رحيله، عبر تصور جسر دائم بين النبوة والامامة. ولذلك كان قرار الغدير بتولية علي (ع) قراراً يقطع بيقين عقلائي في نجاح ادارة الامام (ع) للامة عقود عديدة من السنين.

1- نظرية الصفوة الدينية لا النخبة الاجتماعية

ان فكرة الصفوة يمكن ان تصف ظاهرة اساسية في الحياة الاجتماعية للمجتمع المدني المتحضر. فالمجتمعات الانسانية عموماً - بسيطة كانت او معقدة، زراعية كانت او صناعية- تحتاج الى مرجع تعتبره رمزاً للحياة الشرعية العامة وتجسيداً للقيم الاخلاقية والدينية. ولاشك ان الاختلاف في القابليات الذهنية والروحية للناس، والتباين في الاداء بين البشر يساعد على الركون الى نظرية الصفوة. ذلك لان الاختلاف

¹¹ سورة آل عمران: الآية 144.

¹² فتح البلاغة - كتاب 62 ص 580.

الشاسع في درجات الازعان او التسليم تؤدي الى فوارق في النفوذ، والقيادة، والسلطة. فالانسان الذي ندعن له ونسلم بسلطته لخصيصة معينة لا نملكها، نعطيها الحق في الحكم والادارة الاجتماعية والدينية.

ومن هنا كانت الصفوة الدينية قلة منتخبة انتخاباً سماوياً، ومتميزة عن بقية افراد المجتمع بسبب لياقة خاصة ورفعة مقام وسمو لا يصله اليهم احد. وقد اشار (ع) الى ذلك، فقال: (لا يقاسُ بآل محمد (ص) من هذه الامة احدٌ، ولا يُسوَّى بهم من حرتْ نعمتُهم عليه ابدأً: هُم اساسُ الدين، وعمادُ اليقين. اليهم يفِيءُ الغالي، وبهم يُلحقُ التالي. ولهم خصائصُ حقِّ الولاية، وفيهم الوصيةُ والوراثةُ...) ¹³. وقال (ع) ايضاً: (ابن الذين زَعَموا انهم الراسخون في العلمِ دوننا، كَذَباً وبغياً علينا؟ ... بنا يُستعطي الهدى ويُستجلى العمى) ¹⁴. وفي زيارة الشهداء (ع) في كربلاء: (السلام عليكم يا اصفياء الله واودائه...) ¹⁵

لقد كان علي (ع) يمثل الصفوة التي كانت تشتمل على جميع الفضائل والخصال الجليلة. ومع ان بعض القوى في الصراع الاجتماعي ارادت ان يكون لبعض الصحابة دور نخبوي اجتماعي اكبر من الصفوة الدينية، الا انها لم تفلح في ذلك. لان تلك النخبة — اذا صحَّ اطلاق هذه التسمية عليها — كانت لا تمتلك، مجتمعة، جميع فضائل امير المؤمنين (ع) واهل بيت النبوة (ع).

كيف لا، وهو (ع) القائل يصف تلك الصفوة السماوية: (نَحْنُ الشُّعَارُ والاصحابُ، والخزنةُ والابوابُ، ولا تؤتى البيوتُ الا من ابوابها، فمن أتاها من غيرِ ابوابها سُمِّيَ سارقاً... فيهم كرائمُ القرآنِ، وهم كنوزُ الرحمنِ. إن نطقُوا صدقوا، وإن صمتوا لم يُسَبِّحُوا) ¹⁶.

فكان علي (ع) يمثل الصفوة الدينية في النظام الاجتماعي. ولذلك حُمِلتْ توليته (ع) على الأمة في غدِير خم محملاً طبيعياً منسجماً مع توجهات الدين الحنيف في ادارة المجتمع والدولة بعد غياب رسول الله (ص).

الصفوة الدينية وارشاد الجماعة:

وينبغي ان نلتفت الى ان وجود الصفوة الدينية كان متمماً للنشاطات الاجتماعية المترافدة. فلم يكن المقصود إلغاء دور رجال المال والتجارة، وحفظة القرآن، والشعراء، واهل الادب، ورجال العلم والسياسة، والولاة. بل ان لكل هؤلاء دوائر خاصة بهم يستطيعون ان يتحركوا فيها ولهم مسؤولياتهم ونفوذهم

¹³ نهج البلاغة - خطبة 2 ص 35.

¹⁴ م.ن. - خطبة 144 ص 246.

¹⁵ الادعية والزيارات ص 464.

¹⁶ نهج البلاغة - خطبة 154 ص 263.

الاجتماعي الذي لا يتقاطع مع مسؤولية الصفوة.

بيد ما حصل بعد وفاة رسول الله (ص) هو، ان قريشاً حاولت — بعلم او بجهل — ابدال الصفوة الدينية الهاشمية بنخبة اجتماعية قرشية. فبدلاً من ان يحتل امير المؤمنين (ع) مكانه الطبيعي في ادارة المجتمع الديني وارشاد الامة، نادى الانصار يوم السقيفة: منا امير ومنكم امير. وادعت قريش بانها الشجرة، وانتصرت في ادعائها ذلك، الا انها تمسكت بالشجرة واضاعت الثمرة. كما اشار الامام (ع) الى ذلك. ثم اوصى الخليفة الاول للخليفة الثاني، وجعل الخليفة الثاني الامر شورى بين ستة من الافراد. وبذلك ابدلوا الصفوة الدينية التي اريد لها ان تحكم المجتمع الاسلامي حكماً شرعياً، بنخبة اجتماعية قرشية سيطرت على مقدرات امور الناس. وكان ذلك اعظم انحراف ديني واجهه المجتمع الاسلامي بعد رحيل النبي (ص).

نعم، كان يمكن للنخبة الاجتماعية ان تجتمع لدعم الصفوة الدينية وتستهدي بهديها وتعلن استعدادها للانقياد لها. فالنخبة جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، ففي كل دائرة اجتماعية هناك نخبة مصغرة تدير تلك الدائرة. ففي الجيش مثلاً تتواجد نخبة قديرة تدير شؤونه العسكرية، وفي التجارة تتواجد نخبة تدير تلك الدائرة، وفي الدائرة الادبية هناك نخبة تدير الادب والشعر، وهكذا. وتلك نخبة اجتماعية تُفرض - احياناً - من خلال كفاءتها وحسن ادائها، او - على الاغلب - من خلال نظام سياسي يفرضها على المجتمع.

الا ان الصفوة الدينية تنتخب من قبل الغيب، لان لها خصائص وخصال وفضائل من حيث الادراك والاداء غير متوفرة عند الآخرين. فهي من حيث الثقل الديني والمهارة الاجتماعية والفكرية تختلف عن بقية النخب في الرتبة فضلاً عن الدرجة.

ولاية من الطراز الاول:

ومن هنا نفهم ان الولاية التي مُنحت لعلي (ع) يوم الغدير انما كانت ولاية دينية من الطراز الاول على صعيد الصلاحية الشرعية لادارة المجتمع الاسلامي بعد رحيل المصطفى (ص) عن عالم الدنيا. وهذا يعني نقل الصلاحيات الشرعية في القدرة، والطاقة، والنفوذ من مسرح النبوة الى مسرح الامامة. والى ذلك صرح (ص) بوضوح: (من كنت مولاه فعلي مولاه)¹⁷. وهو تعبير دقيق يفصح عن ان الدين السماوي لازال يحكم المجتمع عن طريق الصفوة الدينية التي بدأت برسول الله (ص) واستمرت في علي (ع) والائمة الاطهار (ع) من بعده. وطالما كانت تلك الصفوة الدينية المثل الاعلى في التأثير والقدرة والنفوذ، كان الدين بخير على مستوى الاجيال القادمة. ذلك لان الصفوة الدينية هي المحرك الاول للمجتمع الديني، وهي النموذج

¹⁷ أسد الغابة ج 3 ص 307.

الكامل الذي ينبغي ان يتحذى.

ولكننا لو ابدلنا تلك الصفوة الدينية بنخبة اجتماعية انصع صورها خلفاء قريش وبنى امية وبنى العباس وغيرهم لاختلّت المعادلة الدينية، لان اولئك الخلفاء كانوا أناساً يرتكبون الاخطاء الشرعية ولا يدركون مقاصد الشرعية. فهم قاصرون في الادراك والاداء عن الصفوة الدينية التي مُنحت اعظم نعم السماء وهي نعمة العصمة في ادراك الدين واداء تكاليفه الشرعية وارشاد الأمة الى تكاليفها وواجباتها ومحرماتها.

وحتى عندما عزلوا الامام (ع) عن دوره الطبيعي في الولاية وصنعوا نخبة اجتماعية يوم السقيفة تمثلت ببعض زعماء قريش، فان دور الصفوة الدينية بقي نشطاً تحت الارض في ظروف التقية الصعبة. فللصفوة الدينية، اذن، دورٌ مستمر. ذلك لان الصفوة الدينية هي صفوة بعيدة المدى لها مسؤوليات عظيمة على طول التأريخ البشري في تبليغ الشريعة وتفسيرها ونقلها بأمانة الى الاجيال المتلاحقة.

وحتى عندما استشهد امير المؤمنين (ع) وبرز معاوية واحفاده على صعيد النخبة السياسية المفروضة عن طريق السيف، بقي دور الصفوة الدينية التي تمثلت بائمة الهدى (ع) مشعاً الى اليوم، بل الى يوم القيامة. لان تلك الصفوة كانت تملك قلوب الناس وارواحهم، فكان لها اعظم التأثير على الأمة بكافة شرائحها وطبقاتها.

وولاية بهذا الحجم لا بد ان تديرها الصفوة الدينية. خصوصاً وان من وظائف تلك الولاية الدينية : تبليغ احكام الشريعة وتطبيقها وتفسيرها، واداء وظيفة القضاء بين الناس وانزال العقوبات بالمخالفين، وعدالة توزيع الثروة الاجتماعية، والتنسيق بين العبادات والمعاملات التجارية، والدفاع عن الامة من اعتداءات العدو، ونشر الاخلاق والفضائل بين الجماعة، وتشجيع الناس على حرية التعبير عن آرائهم بما يخدم الاسلام والمجتمع الاسلامي.

وكلما ازداد حجم المجتمع الاسلامي في الكثافة السكانية او ارتفع في سلم المدينة، بقيت تلك الكليات ثابتة لا تتغير. اذن نستنتج، ان نظرية (من كنت مولاه فعلي مولاه) تحكي قصة الثوابت الحقوقية التي ينبغي ان يتعامل معها المجتمع، تعبدية كانت او اجتماعية محضة.

أ- الفوارق بين النخبة الاجتماعية والصفوة الدينية:

هناك فوارق لا بد من ملاحظتها ودراستها بين الصفوة التي تنتخبها السماء وكان من بينها رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) وفاطمة الزهراء (ع) والحسين (عليهما السلام) وبقية العترة الطاهرة، وبين النخبة الاجتماعية التي فرضت افكارها على الدين وحشرت نفسها في موقع قيادة الامة الاسلامية. ومن تلك

الفروق:

1 — تساهم بعض العوامل في تشكيل النخبة الاجتماعية، ومن تلك العوامل :

أولاً : تملك الارض الواسعة التي تدرُّ بالخيرات، من زراعة وعقار.

ثانياً : تملك الثروة المالية واستثمارها في نشاطات اقتصادية وعمالية.

ثالثاً : رابطة الدم.

فغالباً ما تكون النخبة الحاكمة غنية جداً تمتلك الاراضي الزراعية الواسعة فتقوم بتشغيل الآلاف من العمال والفلاحين، وترتبط بعضها البعض بروابط الدم والرحم. وبذلك تكون النخبة الاجتماعية مكوّنة من : الارض، والثروة، ورابطة الدم.

بينما تُسند الصفوة السماوية عوامل خطيرة منها :

أولاً : الادراك الكامل للدين واستيعاب مقاصده ومفرداته وملاكات احكامه.

ثانياً : الاداء التام للتكاليف الشرعية والمسؤولية الاخلاقية المناطة بالنخبة.

ثالثاً : الدم وصلة الرحم. والرحم او الدم مهم في علاقات الصفوة الدينية لانه ينقل صفات الانبياء

وخصالهم الوراثية الى تلك النخبة، كما قال تعالى : (...وتقلبك في الساجدين)¹⁸ ، (ذرية بعضها من

بعض...)¹⁹ .

وبذلك تكون الصفوة السماوية مكونة من : الادراك، والاداء، والدم.

فالنخبة الاجتماعية تحكم الناس عن طريق السيطرة على عصب الاقتصاد اولاً، ثم تحكم الناس

بالسياسة والظلم. بينما تدير الصفوة الدينية امور الناس بالشرعية بما فيها من عدالة وتنظيم حقوق ومسؤوليات.

2 — يكون اسلوب حياة النخبة الاجتماعية مبني على اساس البذخ، والاسراف، والظلم، وعدم

الامتثال للقيم الدينية والاخلاقية، والانانية بكل ما تحمله من حب للذات وعبادة للشهوات وعدم ايثار. فهذا

معاوية فرض وجوده في النخبة الحاكمة في الشام عن طريق البذخ والاسراف والظلم. وكل من جاء بعده من

بني امية انتهج سلوكاً مقارباً لسلوكه.

بينما تتلأأ طريقة الصفوة الدينية في الحياة عبر : عبادة الله سبحانه من خلال اداء التكاليف الشرعية

على صعيدي الوجوب والاستحباب، واجتناب المحرمات والمكروهات، والابتعاد عن شهوات الدنيا وملذاتها،

¹⁸ سورة الشعراء: الآية 219.

¹⁹ سورة آل عمران: الآية 34.

والعدل بين الناس، والتضحية بالنفس وايتار الآخرين في الطعام والمال. فكانت الصفوة تجوع من اجل ان يشبع الناس، وكانت الصفوة تعرى من اجل ان يكتسي الناس، وكانت الصفوة اول من يجارب ويجهاد ويُقتل بينما كان البقية من الناس في مؤخرة الجيش.

3 — ان اول ما تفكر النخبة الاجتماعية فيه هو التسلط على الناس، ويمثله بكل وضوح خطاب معاوية عندما دخل النخيلة بعد استشهاد امير المؤمنين (ع) وصلى بالناس الجمعة في الصحن : (اني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، انكم لتفعلون ذلك. وانما قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم كارهون)²⁰. ولاشك ان للسلطة امتيازاتها ومنافعها التي يعنصرها الحاكم من الثروة الاجتماعية والامكانات الواسعة التي يمتلكها المجتمع. ولذلك فاننا نرى ظلماً من نوع ما في كل نخبة حكمت المجتمع الانساني.

اما الصفوة الدينية فهي لا تفكر الا في طرق تحقيق العدالة بين الناس، وتعبيد الامة لله سبحانه، واحياء شريعة السماء. وقد حقق امير المؤمنين (ع) مقداراً كبيراً من ذلك خلال فترة خلافته القصيرة زمنياً، الكبيرة على مستوى الاهداف والطموحات.

4 — تعيش النخبة الاجتماعية الرفاه الاقتصادي والنعموة التي تجلبها امتيازات السلطة. بينما هي تفتقد الى الكفاءة اللازمة لتحقيق العدالة الاجتماعية، وتوزيع الحقوق بالانصاف، وتنمية الروح الاخلاقية لدى الناس.

بينما يلمس المرء صفة الكمال في سلوك الصفوة الدينية. ونعني الكمال في كل شيء : الكمال في فهم الشريعة، الكمال في التبعيد، الكمال في التقوى، الكمال في الشجاعة والقتال، الكمال في ترك المذات الدنيوية، الكمال في البلاغة، الكمال في السلوك العام والخاص.

تأثير الصفوة الدينية:

وبكلمة، فان الصفوة الدينية قليلة في العدد، عظيمة في التأثير، متكاملة في الادراك والاداء والنفوذ. وبحكم تلك الخصائص، فان تأثيرها يبقى مستمراً على مر الاجيال. وتبقى وظيفتها حيّة حتى لو رحل اشخاصها عن حياتنا الدنيا.

والولاية التي اعلنها رسول الله (ص) لعلي (ع) في غدير خم في السنة العاشرة للهجرة كانت تعني استمرار الادارة الدينية للمجتمع من قبل الصفوة الدينية عبر تنظيم نمط الحياة الاجتماعية على اسس الدين

²⁰ مروج الذهب - المسعودي ج 3 ص 50.

الجديد. خصوصاً في مجالات الجهاد، والعمل، وتوزيع الثروة، والحكم. فكان امير المؤمنين (ع) كفوّاً لتلك المهمة الجليلة التي لا يقوم بها الا وصي نبي.

وكان الايمان بولاية علي بن ابي طالب (ع) يوم الغدير مرآةً لطموحات المجتمع الاسلامي الحديث واهدافه في بناء الدولة الالهية على الارض. ولكن النخبة الاجتماعية القرشية ابت الا ان ترجع عقارب الساعة الى الوراء. وكان التأريخ في بعض جوانبه اميناً، في تصوير جهل تلك النخبة الاجتماعية باحكام الدين، خصوصاً عندما كان الحرج يأخذ مأخذه منها. فنفهم اذن ان النخبة الاجتماعية ارادت ان تحتل مكان الصفوة الدينية ولكنها فشلت في ذلك، فبقيت سلطة حاكمة.

وبالاجمال، فان ولاية علي (ع) أُريد لها ان توحد الامة حول رمز عظيم من رموز الاسلام، ومركز شرعي يركن اليه الناس، ومحور يدل على شخصية الدين كما عبر هو عن نفسه (ع) بانه القرآن الناطق. ولكن الجذور القبلية كانت — بكل اسف — لا تزال نابتة في اعماق الذين خالفوا وصية رسول الله (ص) بخصوص ولاية الامام (ع).

ويمكننا النظر الى ولاية علي (ع) يوم الغدير على اساس انها كانت مكسباً خطيراً للجماعة في الوحدة والتعاون والاشترك جميعاً في محاربة الشرك والكفر، بلحاظ اختلاف المؤمنين في القابليات، والوظائف، والادراكات، والاداء، والاخلاقيات الاجتماعية والتعبدية. ولكن ذلك المكسب سرعان ما تحطم على اعتاب اجتماع السقيفة بعد وفاة النبي (ص) مباشرة.

ب — وظيفة الصفوة الدينية:

نجد في المجتمع الديني انماطاً من القيم والعادات، ووسائل مشتركة للاتصال الانساني، ومؤسسات اجتماعية للادارة، وصفوة دينية عليا تقوم بتنسيق الاعمال والنشاطات من اجل ان يقوم النظام الاجتماعي بوظائفه المرتقبة. ومن الوظائف المهمة التي تقوم بها الصفوة الدينية هو ادارة الازمات الجماعية الخطيرة ومعالجتها «بالحرب والقتال، او المصالحة والمهادنة، او التقية...»، كما حصل في حروب الامام (ع) يوم الجمل، وصفين، والنهروان. فتلك ازمات في غاية الخطورة لم يستطع ان يقاربها — بادراك شرعي — الا المعصوم (ع).

فالامام (ع) كان يسير في ادارته المجتمع الاسلامي، وفق صورة واضحة تتضمن طرفين هما: الاهداف، والبرامج. وسوف ندرس ذلك في الفصول القادمة باذنه تعالى. ولكننا نحب ان نستيق تلك الفصول ونشير بايجاز الى وظيفة الامام (ع) خلال خلافته، اي بعد حوالي خمس وعشرين سنة من يوم الغدير.

فالاهداف كانت تشير الى اهتمام امير المؤمنين (ع) خلال ايام حكمه بتربية الناس على طاعة الله سبحانه وتعالى، والاهتمام باداء التكاليف الشرعية. وبكلمة، فان هدف الامام (ع) كان بناء دولة شرعية يُعبد فيها الله سبحانه ولا يُعصى. وكان ذلك يتطلب تكييفاً للوصول الى الهدف من قبيل تطبيق نظرية العدالة الاجتماعية والحقوقية بين الناس، واقامة الحدود على المنحرفين، ونشر الفكر الديني الاصيل النابع من السماء في المجتمع الاسلامي.

والبرامج كانت تشير الى اهتمام امير المؤمنين (ع) بحفظ التماسك الاجتماعي عبر استشارة اصحابه في الخروج الى صفين، وارجاع امر القتال على الماء اليهم، ومحاولاته المستميتة في عدم سفك الدماء في الجمل وصفين والنهروان. وكان من اولويات برنامجه (ع) ادارة الازمات التي كان يتوقعها، ومعالجتها معالجة اخلاقية شرعية.

وكان من اخطر الازمات خروج عائشة ام المؤمنين عليه، وعصيان والي الشام المخلوع معاوية بن ابي سفيان لاوامره (ع) ومقاتلته جيش الامام (ع)، وانشقاق مجموعة من جيشه (ع) عليه ومقاتلتها له. وتلك ازمات خطيرة للغاية لم يجتربها حاكم من الحكام من قبل. ولذلك كان (ع) يقول: (...انا فقأت عين الفتنة، ولم يكن أحدٌ ليجتريء عليها غيري)²¹، (...ولو لم أكن بينكم ما قوتل اصحاب الجمل واهل النهروان)²².

وعند التأمل في كل ذلك، نُدرك ان للصفوة الدينية المتمثلة بآل البيت (ع) سلطة اخلاقية، وسلطة شرعية، وقابلية فريدة على ادارة الازمات الاجتماعية الكبرى. وكلما سُلبت من تلك الصفوة سلطة بقيت السلطة الاخرى فاعلة. فاذا سلبوا السلطة الشرعية في الادارة الاجتماعية (الخلافة)، بقيت السلطة الاخلاقية فاعلة وهم في معزل عن السياسة. واذا سلبوا الحرية في ادارة ازمات المجتمع، بقيت السلطة الشرعية - عبر ممارسة التقية- فاعلة ايضاً، وهكذا.

فتلك الصفوة اذن، حافظت على نسيج المجتمع الاسلامي - على جميع الاصعدة العقلية والعاطفية والنفسية - مدة خمسة عشر قرناً من الزمان، وسوف تحافظ عليه الى يوم القيامة، باذنه تعالى.

وبالاجمال، فان وظيفة الصفوة الدينية هو: ابراز الرمز الاخلاقي للجماعة المؤمنة، وعرض الاهداف الشرعية للدين، وتمثيل مصالح الجماعة المنسجمة مع مصالح الدين، وتنسيق الاختلافات في قابليات الناس واداءهم من اجل التكامل الاجتماعي وخدمة المكلف، ومحاوله حل الصراع الاجتماعي بالقيم الاخلاقية، وحفظ امن الجماعة والعبادة من الاخطار الخارجية.

²¹ الغارات ص 5.

²² م. ن. - ص 5.

ج - ديمومة الصفوة:

ومع ان رسول الله (ص) حصر الولاية بعلي (ع) يوم الغدير، الا ان ذلك الحصر كان حصراً موضوعياً ولم يكن حصراً ذاتياً. ففي روايات اخرى ذكر رسول الله (ص) ان الائمة من بعده اثنا عشر اماماً من بني هاشم²³. وهذا يعني ان هناك امتداداً زمنياً للصفوة الدينية. فتركيب تلك الصفوة من اهل الكساء وذريتهم لا يسمح بكسر القاعدة. بل ان ميكانيكية الامداد كانت تستند على قاعدتين في غايته الاهمية، وهما:

الاولى: قاعدة النسب المرتبط برسول الله (ص). والنسب النبوي كان يستبطن علماً موروثاً من المصطفى (ص) ينتقل من جيل لآخر في ائمة الهدى (ع). وهذا الارتباط المشترك عن طريق الدم يعني ان صفات مثل الشجاعة والكرم والحلم والفصاحة والقابليات المتنوعة تنتقل عبر الاجيال المطهرة. فلم يورث ائمة الحق (ع) درهماً ولا ديناراً ولا فضة ولا ذهباً، وانما كانوا يرثون العلم والخلق العظيم كابر عن كابر. ونستنتج من ذلك بان النسب الطاهر لرسول الله (ص) الذي اصبح شرطاً من شروط الصفوة، كانت له آثار اخلاقية على الامام الذي تراه الامة رمزاً اخلاقياً فاضلاً من رموز الدين.

الثانية: قاعدة الكفاءة الشرعية لمنصب الامامة. وتلك الكفاءة التي نطلق عليها عنوان العصمة، هي التي جعلت علي بن ابي طالب (ع) اماماً وعضواً في تلك الصفوة، وهي التي ابعدت جعفر بن ابي طالب (رضوان الله عليه) منها. وهي التي جعلت فاطمة الزهراء (ع) احد اعضاء تلك الصفوة، وهي التي ابعدت زوجاته عنها، كما قال (ص) لام سلمة عندما ارادت ان تدخل في الكساء: (انك على خير)²⁴.

وليس غريباً ان نلمس بان التركيبة المحكمة للصفوة الدينية المتمثلة بالمعصومين الاربعة عشر (عليهم السلام): رسول الله (ص) وفاطمة (ع) وعلي (ع) وذريتهما الاحد عشر (ع)، اعطت لفكرة الامامة والعصمة صورة روحية واخلاقية رائعة عن الدين. فلم يكن من هؤلاء الاطهار من فكّر بأرث دنيوي، او مال زائل، او سلطة ارضية، او جاه فان، او عَرَض مندثر. بل كانت تلك التركيبة مبنية على اساس الطهر والنقاء والحبل المتصل بالسماء.

وهنا لم يلعب جنس الانسان ولا عمره ولا ثروته دوراً في الصفوة الدينية. ففاطمة الزهراء (ع) كانت في الصفوة جنباً الى جنب مع علي (ع). فهنا لم يكن الاصطفاء على اساس جنس الانسان، فالذكورة او الانوثة سواء. وعمر الامام الجواد (ع) كان ثمان سنوات عندما تولى الامامة، وكان عمر الامام الحسن (ع)

²³ الكافي ج 1 ص 531 حديث 7. و(كمال الدين وتمام النعمة) - الشيخ الصدوق ص 269.

²⁴ الخصال - الشيخ الصدوق ج 2 ص 550.

سبع وثلاثين. والعمر هنا ليس عاملاً من عوامل النضوج العلمي، بل ان الاصل هو العصمة والنص. ولم يخلف علي (ع) مالا للحسين (عليهما السلام). وهكذا كان حال بقية الائمة (عليهم السلام). فالمال ليس له دور في الصفوة الدينية على عكس النخبة الاجتماعية حيث يكون المال اهم قوامها وقوتها الضاربة.

والاهم في كل ما ذكرناه، ان الصفوة الدينية لم تستثمر اي مكسب مادي لمصالحها الذاتية، بل ان آل البيت (ع) كانوا ينفقون كل شيء من اجل الفقراء والمستضعفين والمعذيين في الارض. وهذا الفارق بين النخبة الاجتماعية التي تستثمر الثروة الهائلة للمجتمع لمصالحها وشهواتها الخاصة، وبين الصفوة الدينية التي تحرم نفسها من المباحات، اعظم دليل على ارتباط تلك الصفوة الطاهرة بالله سبحانه وتعالى. فلم تكن ملذات الدنيا دافعاً لاداء مسؤولياتها الاجتماعية والدينية، ولم تكن المكافأة الاجتماعية دافعاً لها لتحمل الاذى. بل على العكس من ذلك تماماً، فقد تحملت تلك الصفوة بسبب موقعها الديني محناً والآماً عظيمة. ولم يثنها ذلك من اداء واجباتها الشرعية السماوية.

2- التخطيط الاجتماعي لما بعد رسول الله (ص)

يتضمن التخطيط الاجتماعي الذي يهتم به اصحاب القرار رسم خريطة عمل للقضايا المستقبلية، بخصوص الموارد والمؤسسات التي يتعامل معها المجتمع كأمة. فالتخطيط الاجتماعي يُصمّم — على الاغلب — من اجل سد حاجات المجتمع، على الصعيد الديني والاجتماعي والسياسي، على المدى البعيد. ويُلاحظ في التخطيط — كما نفهمه من العنوان — امن الجماعة وحاجاتها التعبدية والحياتية.

وفي ضوء تلك الافكار نفهم ان اهم مشكلة كانت تواجه المسلمين بعد وفاة النبي (ص) فيما يتعلق بالتخطيط الاجتماعي هي مشكلة الولاية الشرعية. فقيادة المجتمع تعدُّ مشكلة خطيرة تحتاج الى تخطيط، ذلك لان اكتمال مباني الدين باكتمال نزول القرآن المجيد كان يفتح الباب للتأويل والتفسير والاجتهاد المبني على البناء الثقافي الجاهلي. وكان المجتمع الاسلامي الجديد بحاجة ماسة الى معرفة تفصيلية لمصاديق نظام الدولة في الحقوق والواجبات، والمسؤوليات الاخلاقية والشرعية، والعدالة الاجتماعية، وادامة الدفاع الابتدائي والحرب الهجومية من اجل نشر الاسلام في العالم.

أ — التخطيط الاجتماعي: قرارٌ ديني

لقد كانت الأمة بحاجة الى وقت، في مرحلة ما بعد النبوة، لاستيعاب معاني القرآن الكريم وادراك السيرة النبوية الشريفة. وكان ذلك يتطلب فهماً لموقع الامة التأريخي من كل ذلك. فالدين انما جاء من اجل

تقوية الضعيف، وتعليم الجاهل، وتمكين الايمان من احتلال موقعه الطبيعي في النفس الانسانية. فالاسلام لا يكتفي بمجرد انشاء كيان اجتماعي للمسلمين، بل يريد لذلك الكيان ان يستمر مع استمرار الحياة على الارض. وتلك مهمة صعبة لاشك، ولكنها مهمة تملك كل مقومات النجاح والتسديد.

ولذلك كان القرار للتخطيط الاجتماعي قراراً دينياً بالدرجة الاولى، لانه لم يخضع لمجرد الحسابات الاقتصادية او المالية او السياسية. بل كان قراراً مبنياً على القيم الاخلاقية والدينية. وتحت ظلال تلك الفكرة نستنتج بان قرار «اخلفني في اهلي»، «ومن كنت مولاه فعلي مولاه» كان يستبطن اسباباً شرعية وفلسفية. لقد كان علي (ع) رأس مال الاسلام الذي كان ينبغي ان يستثمر في مشروع ولاية الدولة الاسلامية في غياب رسول الله (ص). وقراراً كهذا كان يُلاحظ فيه التيارات الاجتماعية التي كانت تحكم العرف الاجتماعي في ذلك الوقت، واهمها تيار المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وتيار المشركين، والتيار الضبابي الذي دخل حديثاً في الاسلام، او كما عبر عنه عمار بن ياسر يوم صفين : (والله ما اسلموا ولكنهم استسلموا...) ²⁵.

ولاشك ان اعلان نقل الولاية لعلي (ع) بعد رحيل النبي (ص) كان يعني قراراً يحمل تأثيراً بالغاً على السلوك الاجتماعي. فالإقرار بالولاية لبطل المعني شاب مثل علي بن ابي طالب (ع) وهو في سن ينوف قليلاً على الثلاثين له دلالات ينبغي ان تؤخذ في التخطيط الاجتماعي. وهو ان المخطط له، وهو المجتمع الاسلامي، كان يُراد له ان يعيش الحكم الشرعي ويتفاعل معه للعقود الثلاثة او الاربعة او الخمسة القادمة. وهي فترة تربية عظيمة لو قُدِّرَ لها ان تتم.

وبتعبير اقرب الى فهمنا المعاصر، كان التخطيط لولاية علي (ع) من اجل ادارة المجتمع الاسلامي منطقياً الى ابعد الحدود. فقد كان علي (ع) يحمل سياسة رسول الله (ص) الاجتماعية، ومنهجه العام في التعامل مع الدولة وفرادها، والأمة وتركيبها.

ب — التخطيط الاجتماعي وارتكاز العقلاء :

واعلان الولاية يوم الغدير لم يكن طموحاً منفرداً، بل كان قراراً شرعياً مبنياً على ارتكاز العقلاء ومنهجهم في التحليل الذهني. فقد كان اعلان الولاية مستنداً على طريقة منهجية في البحث عن الحقائق. فلو درسنا خريطة المجتمع الاسلامي من زاوية الشخصيات لرأينا بان العترة الطاهرة (ع) هي الكفو الفريد في ولاية الأمة لما تتمتع به من صفات وفضائل وخصال يفتقدها الناس جميعاً.

واعظم صفة تتمتع بها العترة الطاهرة (ع) هي قدرتها على الوصول الى اهدافها الدينية لو توفرت لها

²⁵ نهج البلاغة - المختار من كتبه (ع) رقم 16 ص 473.

الشروط الموضوعية. فكان علي (ع) يمتلك ملكة ادراك الاحكام الواقعية، والوسيلة اللغوية الفصيحة للتوصيل، والشجاعة والبطولة الخارقة لدحر اعداء الدين، والزهد والتقوى والتعفف، والقابلية على الادارة الاجتماعية والقدرة على تحطيم النظام الطبقي الظالم.

فكانت الارادة الالهية ودوافع الوحي و ارادة النبي (ص) قاطعة بان يكون علياً (ع) ولياً شرعياً على المسلمين. ولكن تلك الارادة لم يُكتب لها ان تتحقق على ارض الواقع الا بعد عقدين ونصف من الزمان. وهو زمن طويل نسبياً مرّ بازمات وانحرافات خطيرة. وهذا يثبت - ولو متأخراً - ان الولاية الشرعية كانت حتمية سماوية. لان المجتمع يحتاج الى ادارة قادرة وكفوءة، والا انقلبت المعادلة وانعكس التيار وذهب النظام وعمّت الفوضى. وهذا ابعد ما يكون عن اهداف الدين السماوي وطموحاته. ولذلك كان المجتمع العربي بحاجة الى اعادة هندسة وتخطيط.

فالمجتمع القبلي مثلاً يحتاج الى اعادة تصميم على اسس دينية جديدة مثل الايمان بالله سبحانه، والتمرن على العبادات، وتحقيق العدالة الاجتماعية. ومجتمع المنافقين يحتاج الى اعادة تصميم وهندسة لانه مبنيٌ على باطن فاسد وظاهر جميل. ومجتمع الجاهل يحتاج الى اعادة تصميم لان الجاهل قد يوصل الانسان الى الكفر والجحود دون قصد، كما اوصل مجتمع اهل النهروان الى تلك النهاية المخزية وقد اشار (ع) الى ذلك : (... ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فادركه...)²⁶. والخطأ في طلب الحق ناشئٌ من الجاهل دون شك.

وبالاجمال، فان التخطيط النبوي لولاية علي (ع) ومن بعده ائمة الهدى (ع) يكشف عن ان ذلك التخطيط نابعٌ من قرار بتشخيص اهداف الدين ونهاياته عبر تعيين الوسائل لتحقيق ذلك. فالولاية كانت رابطاً بين الوسائل والاهداف في المجتمع الديني. اذن، كان التخطيط للولاية نابعٌ من قرار التفكير بمستقبل الدين والمجتمع الانساني الذي يعيش تحت ظله، وهو من مباني ارتكازات العقلاء.

ج - المنتفعون والمتضررون من ولاية علي (ع):

واذا كان السؤال المطروح هو: من الذي انتفع من ولاية علي (ع) ومن الذي تضرر؟ لكان الجواب هو: ان الذي انتفع من ولايته (ع) الفقراء والمحرومين واهل البصيرة والدين والمؤمنين الذين كانوا يعشقون الوصول الى الله سبحانه عبر العبادة واعمال الخير والجهاد من اجل الاسلام. لقد كان خير الولاية يصبُّ في مصلحة الدين.

²⁶ فتح البلاغة - حطبة 60 ص 97.

اما الذي تضرر من ولايته (ع) فهي الطبقة الثرية التي تجمعت اموالها من الظلم والاضطهاد يوم كانت مقدرات الامور بيدها في مكة، حيث لمست جدية علي (ع) في تطبيق العدالة الاجتماعية وتكسير اصنام النظام الطبقي. وتلك الطبقة لا تزال تحكمها الاعراف القبلية ولم يتعمق الايمان في قلبها. وعلى اي حال، فان كلاً من المجموعتين حاولتا التأثير على قرار الولاية. وكانت المجموعة المتضررة من الولاية اقوى في التأثير وامضى في التنظيم، فحاولت التأثير على قرار الولاية عبر ثلاثة طرق نقلها لنا التاريخ :

الاول : منع رسول الله (ص) من كتابة وصيته في مرضه عندما زعموا انه كان يهجر. حيث تذكر لنا المصادر التاريخية ان النبي (ص) "عندما حضرته الوفاة وكان معه في البيت رجال فيهم عمر، قال (ص) : هلموا اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده. فقال عمر : ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ! فاختلف اهل البيت واختصموا، فلما كثر اللغط والاختلاف... قال النبي (ص) : قوموا عني"²⁷.
الثاني : البقاء في المدينة وعدم الالتحاق بجيش اسامة بدعوى انهم يريدون ان يحدثوا برسول الله (ص) عهداً، وانهم لو خرجوا الى جيش اسامة لسألوا الركب عن حالة النبي (ص) وهم يكرهون ذلك. وتلك اعداء لا تقبل وجهاً منطقياً غير السياسة.

الثالث : الاجتماع في سقيفة بني ساعدة بمعزل عن علي (ع) وهو الخليفة الذي عينه رسول الله (ص) يوم الغدير، والاحتجاج بين المهاجرين والانصار بـ (نحن الامراء وانتم الوزراء). ثم (لا يجتمع سيفان في غمد واحد). ثم إكراه الناس على البيعة للخليفة الاول.

لقد كان تأثير مجموعة قريش على فكرة الولاية الشرعية سلبياً على صعيدي الوسائل والنهايات. فقد حطمت اعمال تلك المجموعة كل اهداف التخطيط النبوي للأمة بعد رحيله (ص) الى العالم الآخر. لقد كان معلوماً ان رسول الله (ص) جمع المسلمين في ذلك اليوم القاطن تحت حر الهجير في مفترق طرق الصحراء من اجل ان يبقى الدين محفوظاً باليد الامينة، ومن اجل ان يتنعم المستضعفون والمضطهدون والمعذبون في الارض بخيرات الدين ونعمه.

ولكن ارادة قريش شاءت الا ان تعصي ارادة النبي (ص) وتكسر اقواله (ص) وتتذرع بمختلف الحجج من اجل ان تسيطر على زمام الامور بعد وفاته (ص)، ناسية قول الله تعالى في محكم كتابه : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)²⁸.

²⁷ الطبقات الكبرى ج 4 ص 60-61.

²⁸ سورة الاحزاب: الآية 36.

3- الجسر الدائم بين النبوة والامامة

ان الائتلاف او الاندماج يعبران الى حد ما عن الاستثمار المشترك للمصادر من اجل الوصول الى قرار. ولكن الفرق بين الائتلاف والاندماج، هو ان الائتلاف حالة مؤقتة بينما يكون الاندماج حالة دائمية. ولو افترضنا ان هناك ائتلافاً او اندماجاً بين طرفين، فان اي طرف ثالث يروم الدخول في ذلك الائتلاف او الاندماج يعتبر حالة تطفلية او حالة اقتحامية متعددة على ملكية الغير.

وعندما نقول ان هناك حالة ائتلاف او اندماج بين طرفين، فان المؤتلفين او المندمجين لا يمكن ان يكون احدهما ضد الآخر. ولذلك فان الائتلاف او الاندماج لا يتم بين المتناقضين ولا بين المتضادين، بل يتم الائتلاف والاندماج بين المنسجمين اللذين يكمل احدهما الآخر. وهنا يفرز الاندماج دائماً اطمئناناً عقلياً ومنفعة دينية واجتماعية، لان هناك تشخيصاً من قبل الطرفين للنتائج التي يمكن توقعها.

ولو درسنا الرابطة بين النبوة والامامة يوم الغدير لرأينا بان هناك حالة اندماجية تعبر عنه المقولة النبوية: «من كنت مولاه فعلي مولاه». فالمولوية هنا عملية استمرار لتطبيق الحكم الشرعي من المنبع السماوي «القرآن والسنة». وتلك المولوية المتصلة بعضها ببعض تعني قرارات شرعية متشابهة تحكم القانون الاجتماعي والاعراف والارتكازات العقلانية.

ومن هنا نفهم بان اعلان الولاية لعلي (ع) يوم الغدير كان يعني ان هناك تناسقاً فكرياً بين النبوة والامامة. بمعنى ان النبي (ص) والامام (ع) كانا ينظران الى نفس الملاك والمصلحة، وكانا ينسقان لنفس التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى للدين. وتعبير ثالث، ان كلاً منهما كان يعلم بمقاصد الآخر ونيته وارتباطه بالله عز وجل علماً يقينياً. ولذلك كان النبي (ص) على اطمئنان تام بصحة نقل المولوية منه (ص) بعد وفاته الى من هو اهل لتلك المسؤولية وهو علي (ع). وكان ذلك امر الله سبحانه وتعالى.

ولاشك ان المشاكل التي كانت تواجه رسول الله (ص) تجاه التيارات والمؤسسات الاجتماعية ستواجه المولى الجديد (ع). فالمنافقون الذين واجهوا رسول الله (ص) كانوا سيواجهون امير المؤمنين (ع). وعصيان الجنود الذي واجهه (ص) في أحد كان سيواجهه في معركة اخرى، وبالفعل قد واجهه في صفين مثلاً. ولكن بسبب التغير الاجتماعي الذي حصل خلال عقدين ونصف من الزمان، واجه امير المؤمنين (ع) انواعاً جديدة من التيارات الاجتماعية وهي: تيار الناكثين، والقاسطين، والمارقين. وهو يشبه الى حد ما تيار المشركين من اهل الكتاب (اليهود)، والمشركين من عبدة الاصنام، والمنافقين الذين كانوا يضمرون العداة لدولة رسول الله (ص).

وبكلمة، فان الحديث عن الائتلاف او الاندماج بين النبوة والامامة يوم الغدير كان خاضعاً لثلاثة

عوامل :

الاول : ان درجة الائتلاف او الاندماج كانت ضخمة جداً بحيث ان صلاحيات المولوية انتقلت بكاملها من النبي (ص) الى الامام (ع) عبر قوله (ص) : «من كنت مولاه فعلي مولاه». اي اذا كنت انا قائداً لزيد، فان علياً (ع) هو ايضاً قائداً لزيد بنفس الدرجة.

الثاني : ادامة ولاية العترة الطاهرة (ع) الى قرون عديدة قادمة. فالولاية الشرعية على المجتمع الاسلامي لم ولن تتوقف عند حد زمني معين، لان اهدافها الدينية في تكامل الجماعة المؤمنة تبقى متجددة مع كل جيل من الاجيال الانسانية.

الثالث : ان فحوى القرار الذي يمكن ان يتخذه الامام (ع) لا يجيد عن فحوى القرار الديني السماوي. فشخصية علي (ع) تعلّمت من رسول الله (ص) جميع الكليات الدينية، ولاريب في ذلك فهي شخصية غير منفصلة عن الصفوة الالهية التي اصطفها الله سبحانه لعباده.

4- نظرية القرار

ان الانسان بطبيعته الاجتماعية يحب ان يختار ما يعمل. وفي اغلب الاحيان فان قرار الاختيار يُصنع في غياب معرفة يقينية بآثار ذلك القرار. فقد يختار الرجل امرأةً من عائلة ما لتصبح زوجته، لكنه لا يعرف على قدر اليقين والقطع آثار تلك الزوجية ونجاحها او فشلها. وقد يختار التلميذ فرعاً من فروع المعرفة في الجامعة ويتخذ القرار لدراسة ذلك الحقل من العلوم كالكيمياء او الفيزياء، لكنه لا يعرف يقيناً مقدار استفادته من ذلك العلم او مقدار استيعابه.

واتخاذ القرار يعتمد على عاملين :

الاول : القيمة الموضوعية او النفع او الفائدة لآثار القرار.

الثاني : الاحتمالية العقلانية العالية لنجاح القرار في تحقيق اهدافه.

فالذي يشخص سلامة اتخاذ القرار اذن هو : الفائدة، واحتمالية تحقيق الهدف. وكلا المبدأين معيارين، اي يمكن قياسهما بالمقاييس العرفية. ويمكن الجمع في هذه الطريقة بين المثالية الدينية والواقعية الارضية. ذلك ان الذي يتخذ القرار المثالي ينبغي ان يربط بين المثالية والواقعية في الاداء.

فالقرار في مسألة خطيرة كالولاية مثلاً ينبغي ان يكون ذا قيمة موضوعية مطلقة نافعاً الى اقصى درجات النفع باعتباره ينتقي الخيار الافضل الذي يؤدي الى نتيجة أفضل. وان درجة احتمالية نجاح القرار ينبغي ان تكون الاعلى من اجل ان يحقق اهدافه. ولاشك ان قراراً — من هذا القبيل — لا يُتخذ الا بعد ان

يكون هناك قطع بدقة المعلومات المتوفرة عن المولى الجديد الذي انيطت به مسؤولية ولاية المسلمين.

ولو حللنا القيمة الاخلاقية والدينية المتوقعة من تولية امير المؤمنين (ع)، لاستندنا على المباني التالية :

1- المبني العقلاني : الذي كان يدعو الى اختيار شخصية حكيمة شجاعة مثل شخصية الامام (ع) للولاية بعد رحيل رسول الله (ص) عن عالمنا. فالصفات التي توفرت فيه (ع) كانت صفات كمالية تقود المجتمع الى الامان الديني والاجتماعي.

2- المبني الشرعي : وهو المبني الذي يريده الشارع، لا الذي تمواه رغبات الناس. فقد يهوى الناس ارتكاب المعاصي، لكن الشارع عز وجل ينهاهم عن ذلك، وقد يهوى الناس ترك الواجبات لكن الشارع يأمرهم بادائها حتماً.

وقد كان اختيار الشرع لعلي (ع) في ولاية المؤمنين منسجماً مع شروط الشارع عز وجل في اقامة المجتمع الديني الذي أسس على اصالة عبادة الله سبحانه وتحقيق العدالة الاجتماعية والحقوقية بين الناس.

3- المبني الاجتماعي : ان الناس يريدون - على الاغلب- اقحام اذواقهم في المسائل الاجتماعية الكبرى التي هم المجتمع. ولذلك كان الاحاح من رسول الله (ص) يوم الغدير على نقل الصلاحيات الشرعية بعد وفاته (ص) واضحاً اشد الوضوح. يقول (ص) : (اني اوشك ان ادعى فأجيب... ان الله مولاي، وانا مولى المؤمنين، وانا اولى بهم من انفسهم. فمن كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...)²⁹. ولكنه عندما مرض (ص) وارادهم ان يذهبوا مع جيش اسامة، تعللوا بمختلف العلل من اجل البقاء. فكان إقحام اذواقهم في هذا المعترك الديني الخطير قد افسد الامر في نقل الصلاحيات الشرعية الى اليد الامينة.

4- المبني الغيبي : ان رسول الله (ص) كان يملك كرامة التنبأ بالاحداث المستقبلية. فكان (ص) يعلم بان امر الولاية سيؤول الى هذا المصير، ولذلك فقد شرك في كتابة القرآن مع علي بن ابي طالب (ع) كتاب آخرون مثل زيد بن ثابت، وابي بن كعب، وعثمان بن عفان، وغيرهم من اجل ان يبقى القرآن محفوظاً بين الدفتين، ولا يُختلف فيه كما أُختلف في الولاية الشرعية بعد وفاته.

أ- دور الاحتمالية في صنع القرار :

عندما يصدر الأمر قراراً، فانه يلحظ فيه نظرية الاحتمالات. وتلك النظرية تخضع لثلاث قواعد مسلم

بها وهي :

²⁹ أسد الغابة ج 3 ص 307.

أولاً : ان الاحتمالات تبقى منحصرة بين الصفر (0) والواحد (1).

ثانياً : ان الصفر (0) يعني استحالة، وان الواحد (1) يعني قطع.

ثالثاً : ان احتمالية ان الامر سوف يحصل، مضافاً الى احتمالية عدم حصوله كلها تضاف الى حد وصول الامر الكلي الى الواحد (1). وفي هذا الموضوع تفصيل يخرج عن نطاق هذا الكتاب.

وعلى اي تقدير فلو اخذنا عملة نقدية من المعمول بها اليوم ورميناها في الهواء، فان احتمال سقوطها على الوجه الذي يحمل الصورة يتراوح بين الصفر والواحد. ولا يمكن الجمع بين ظهور وجه الصورة ووجه الكتابة في وقت واحد. وكذلك احتمالية دخول ابنك كلية الطب في السنة المقبلة من هذا القبيل، لانه اما سلب او ايجاب اعتماداً على جهده وحجم ادائه في الامتحان.

ولو طبقنا تلك النظرية على خلافة رسول الله (ص)، لتبين لنا ان هناك احتمالان لا ثالث لهما، وهما :

أولاً : ان تمنح الولاية لافراد ليست لديهم الكفاءة الدينية ولا الاختيار الرباني، وهذا مستحيل عبرنا عنه بالصفر (0).

ثانياً : ان تمنح الولاية لفرد لديه الكفاءة والمؤهلات العلمية والنسبية وعلاقته بالله سبحانه وهو علي (ع)، وهذا هو القطع الذي مثلنا له بالواحد (1).

فاحتمالية تسلّم علي (ع) مقاليد الولاية هو احتمالية تصل الى مستوى القطع، لان البديل المحتمل الآخر كان صفراً، وهو مستحيل.

ب – المجتمع وصنع القرار:

ان صنع القرار الديني عملية دينية تنظر الى الملائكات والمصالح، وتنظر الى الساحة الاجتماعية والمشاكل التي تعترضها. وصنع القرار لا ينحصر بحل مشكلة معينة. بل ان صنع قرار مثل قرار الولاية ينظر الى قضيتين :

الاولى : انه لا يتناول مشكلة معينة فقط، بل انه يقدم تصوراً لمشاكل المجتمع الاسلامي الفقهية والحقوقية لمسافة زمنية بعيدة.

الثانية : ان صنع قرار من قبيل قرار تحميل مسؤولية الولاية يتطلب اذن سماوي مستند على تقييم شرعي بالكفاءة الدينية لادارة المجتمع.

وقد كان امير المؤمنين (ع) قادراً على تحمل المسؤولية الشرعية تحملاً كاملاً، ولذلك كان القرار السماوي يوم الغدير يحقق كل طموحات نظرية القرار. فقد كانت وصية النبي (ص) تحقق الفائدة الشرعية

التامة للامة، وكانت احتمالية تحقيق الهدف تصل الى مستوى القطع. وبذلك كان قرار الوصية اخطر قرار تم في الاسلام بعد قرار الوحي والنبوة.

الفصل الحادي والعشرين

الحزن الاعظم

"وفاة رسول الله (ص)"

وفاة رسول الله (ص) * دفن النبي (ص) * الدلالات العلمية للنصوص * وفاة النبي (ص): الابعاد والمعاني: 1- وفاة آخر الانبياء (ص) على الأرض 2- واجبات الجماعة تجاه الوفاة. 3- دور علي (ع) خلال الوفاة وبعدها. 4- وفاة النبي (ص) والازمة الاجتماعية.

وفاة رسول الله (ص)

لما رجع رسول الله (ص) الى المدينة من حجّ الوداع، دعا أسامة بن زيد وأمره ان يقصد حيث قتل أبوه، وقال (ص) له : (اوطىء الخيل اواخر الشام من اوائل الروم). وجعل (ص) في جيش اسامة وتحت رايته اعيان المهاجرين ووجوه الانصار، وفيهم ابو بكر وعمر وابو عبيدة.

وعسكر أسامة بالجرف، فاشتكى رسول الله (ص) شكواه التي توفي فيها، وكان (ص) يقول في مرضه : (نفذوا جيش أسامة) ويكرر ذلك. وانما فعل (ص) ذلك لئلا يبقى في المدينة عند وفاته من يختلف في الامامة، ويطمح في الامارة، ويستوسق الأمر لاهله³⁰.

ذكر الفضل بن الحسن الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري) ان النبي (ص) لما أحسّ بالمرض الذي اعتراه - وذلك يوم السبت او يوم الاحد ليال بقين من صفر- أخذ بيد علي (ع)، وتبعه جماعة من اصحابه، وتوجّه الى البقيع ثم قال : (السلام عليكم أهل القبور، ليهنثكم ما أصبحتم فيه مما فيه الناس. أقيلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها. ثم قال : ان جبرئيل (ع) كان يعرض عليّ القرآن كل سنة مرة، وقد عرضه عليّ العام مرتين، ولا أراه الا لحضور أجلي).

ثم قال : (يا علي، اني خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها او الجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة. فإذا انا مت فغسلني واستر عورتي...).

ثم عاد الى منزله، فمكث ثلاثة ايام موعوكاً. ثم خرج الى المسجد يوم الاربعاء معصوب الرأس متكئاً على عليّ (ع) بيمين يديه وعلى الفضل بن عباس باليد الأخرى. فجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : (اما بعد : ايها الناس، إنه قد حان مني خفوق من بين أظهركم، فمن كانت له عندي عدّة فليأتني أعطه اياها، ومن كان له عليّ دين فليخبرني به). فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله لي عندك عدّة. إني تزوجت فوعدتني ثلاثة أواق، فقال عليه السلام : (أنحلها آياه يا فضل).

ثم نزل فلبث الاربعاء والخميس، ولما كان يوم الجمعة جلس على المنبر فخطب ثم قال : (ايها الناس انه ليس بين الله وبين احد شيء يعطيه به خيراً او يصرف به عنه شراً الا العمل الصالح. ايها الناس لا يدّع مدّع، ولا يتمنّ متمنّ، والذي بعثني بالحق لا ينحني إلا عمل مع رحمة الله، ولو عصيت لهويت، اللهم هل بلّغت ؟ - ثلاثاً -).

³⁰ (الارشاد) - المفيد ج 1 ص 180. و(تاريخ العقبوي) ج 2 ص 113.

الايام الاخيرة :

ثم نزل فصلى بالناس، ثم دخل بيته. وكان إذ ذاك في بيت ام سلمة، فأقام به يوماً او يومين. فجاءت عائشة فسألته ان يُنقلَ الى بيتها لتتولى تعليقه فأذن لها. فانتقل الى البيت الذي أسكنته عائشة فاستمر المرض به فيه أياماً وثقل عليه السلام. فجاء بلال عند صلاة الصبح ورسول الله (ص) مغمور بالمرض فنادى الصلاة رحمكم الله، فقال (ص) : «يصلي بالناس بعضهم»، فقالت عائشة : مروا أبا بكر فليصلّ بالناس. وقالت حفصة : مروا عمر.

فقال (ص) : «أكففن، فإنكن صويحبات يوسف». ثم قام وهو لا يستقلّ على الارض من الضعف، وقد كان عنده أنهما خرجا الى أسامة. فأخذ بيد علي بن ابي طالب (ع) والفضل بن عباس فاعتمدهما ورجلاه تخطّان الأرض من الضعف. فلما خرج الى المسجد وجد أبا بكر قد سبق الى المحراب، فأومأ اليه بيده، فتأخر ابو بكر. وقام رسول الله (ص) وكبر وابتدأ بالصلاة، فلما سلّم وانصرف الى منزله استدعى أبا بكر وعمر وجماعة من حضر المسجد ثم قال : «ألم أمركم ان تنفذوا جيش أسامة؟» فقال ابو بكر : إني كنتُ خرجت ثم عدت لأحدث بك عهداً. وقال عمر : إني لم أخرج لاني لم أحبّ أن أسأل عنك الركب.

فقال (ص) : «نفذوا جيش أسامة» - يكرّرها ثلاث مرات - ثم أغمي عليه صلوات الله عليه وآله من التعب الذي لحقه، فمكث هنيئة وبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده ومن حضر، فأفاق (ص) وقال : «اثتوني بدواة وكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده ابداً» ثم أغمي عليه.

فقام بعض من حضر من أصحابه يلتمس دواة وكتفاً، فقال له عمر : ارجع فإنه يهجر !! فرجع. فلما أفاق (ص) قال بعضهم : ألا نأتيك يارسول الله بكتف ودواة ؟ فقال : «أبعد الذي قلت !! لا، ولكن احفظوني في اهل بيتي، واستوصوا باهل الذمة خيراً، واطعموا المساكين وما ملكت إيمانكم».

ذكر ابن سعد : «ان الرسول (ص) عندما حضرته الوفاة وكان معه في البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال : هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده. فقال عمر : ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ! فاختلف اهل البيت واختصموا، فلما كثر اللغط والاختلاف... قال النبي (ص) : قوموا عني»³¹.

وصيته (ص) الاخيرة لعلي (ع):

فلم يزل يردد التوصية باهل بيته (ع) حتى أعرض بوجهه عن القوم، فنهضوا. وبقي عنده العباس

³¹ الطبقات الكبرى - ابن سعد ج 4 ص 60 - 61.

والفضل وعلي (ع) واهل بيته خاصة، فقال له العباس : يارسول الله ان يكن هذا الامر فينا مستقراً من بعدك فبشّرنا، وإن كنت تعلم أنا نغلب عليه فأوص بنا، فقال : «أنتم المستضعفون من بعدي» واصمت، ونهض القوم وهم يبكون.

فلما خرجوا من عنده قال : «ردّوا عليّ اخي علي بن ابي طالب وعمّي» فحضرا. فلما استقرّ بهما المجلس قال رسول الله (ص) : «ياعبّاس ياعمّ رسول الله، تقبل وصيّتي وتنجز عدتي وتقضي ديني؟» فقال له العباس : يارسول الله، عمّك شيخ كبير ذو عيال كثير، وأنت تباري الريح سخاءً وكرماً، وعليك وعدّ لا ينهض به عمّك.

فأقبل على عليّ (ع) فقال (ص) : «ياأخي تقبل وصيّتي وتنجز عدتي وتقضي ديني؟» فقال (ع) : «نعم يارسول الله».

فقال (ص) : «أدن مني» فدنا منه فضمّه اليه ونزع خاتمه من يده، فقال له : «خذ هذا فضعه في يدك» ودعا بسيفه ودرعه وجميع لامته فدفع ذلك اليه، والتمس عصابة كان يشدها على بطنه اذا لبس درعه — يروى ان جبرئيل نزل بها من السماء — فجيء بها اليه، فدفعها الى امير المؤمنين (ع) وقال له : «اقبض هذا في حياتي». ودفع اليه بغلته وسرجها وقال : «امض على اسم الله الى منزلك».

فلما كان من الغد حجب الناس عنه، وثقل في مرضه (ص)، وكان علي (ع) لا يفارقه الا لضرورة، فقام في بعض شؤونه فأفاق إفاقة فافتقد علياً (ع) فقال : «ادعوا لي اخي وصاحبي» وعاوده الضعف فأصمت، فقالت عائشة : ادعوا ابا بكر، فدعي فدخل، فلما نظر اليه أعرض عنه بوجهه، فقام ابو بكر. فقال : «ادعوا لي أخي وصاحبي» فقالت حفصة : ادعوا له عمر، فدعي. فلما حضر رآه النبي (ص) فأعرض عنه بوجهه فانصرف.

ثم قال : «ادعوا لي اخي وصاحبي» فقالت ام سلمة : ادعوا له علياً (ع) فانه لا يريد غيره. فدعي امير المؤمنين (ع)، فلما دنا منه اوماً اليه فأكبّ عليه، فناجاه رسول الله (ص) طويلاً. ثم قام فجلس ناحية حتى أغفى رسول الله (ص). فلما أغفى خرج فقال له الناس : يا ابا الحسن مالذي أوعز اليك؟ فقال : «علّمني رسول الله ألف باب من العلم فتح لي كل باب ألف باب، ووصاني بما أنا قائمٌ به إن شاء الله».

آخر اللحظات:

ثم ثقل رسول الله (ص) وحضره الموت، فلما قرب خروج نفسه قال (ص) له : «ضع رأسي يا عليّ في حجرك فقد جاء أمر الله عز وجل، فاذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثم وجهني الى

القبلة، وتولّ أمرى، وصلّ عليّ اول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله عز وجل». وأخذ علي (ع) رأسه (ص) فوضعه في حجره فأغمي عليه، وأكبّت فاطمة (ع) تنظر في وجهه وتندبه وتبكي، وكان الآية الشريفة قد تمثلت لها : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل إنا مات او قُتل انقلبتم على اعقابكم)³². فبكت طويلاً، فأوماً اليها بالدنو منه، فدنت اليه، فأسرّ اليها شيئاً هلّل له وجهها.

ثم قضى (ص) ويد امير المؤمنين (ع) اليمنى تحت حنكه، ففاضت نفسه (ص) فيها، فرفعها (ع) الى وجهه فمسحها بها، ثم وجّهه وغمّضه ومدّ عليه إزاره واشتغل بالنظر في أمره³³. فسئلت فاطمة (ع) : ما الذي أسر اليك رسول الله (ص) فسرى عنك ؟ قالت (ع) : «أخبرني أبي اول أهل بيته لحوفاً به، وأنه لن تطول المدة بي بعده حتى أدركه، فسرى ذلك عني»³⁴. ورؤي عن الامام محمد الباقر (ع) انه قال : «لما حضر رسول الله (ص) الوفاة نزل جبرئيل (ع) فقال : يارسول الله أتريد الرجوع الى الدنيا وقد بلغت ؟ قال : لا. ثم قال له : يارسول الله تريد الرجوع الى الدنيا ؟ قال : لا، الرفيق الاعلى»³⁵. توفي رسول الله (ص) لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من هجرته³⁶.

دفن النبي (ص):

لما اراد علي (ع) غسل رسول الله (ص) استدعى الفضل بن عباس. فأمره (ع) ان يناوله الماء، بعد ان عصب عينيه (ص)، فشقّ قميصه من قبل جيبه حتى بلغ به الى سرّته، وتولى غسله وتحنيطه وتكفينه، والفضل يناوله الماء. فلما فرغ من غسله (ص) وتجهيزه تقدّم فصلّى عليه³⁷. يروى عن الامام الباقر (ع) ان الناس قالوا : «كيف الصلاة عليه ؟ فقال علي (ع) : ان رسول الله (ص) إمامنا حيّاً وميتاً، فدخل عليه عشرة عشرة فصلّوا عليه يوم الاثنين وليلة الثلاثاء، حتى الصباح ويوم الثلاثاء، حتى صلى عليه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم واثاهم، وضواحي المدينة، بغير امام»³⁸.

³² سورة آل عمران: الآية 144.

³³ (اعلام الورى باعلام الهدى) - الطريسي ج 1 ص 263-272.

³⁴ (الارشاد) ج 1 ص 181.

³⁵ (المناقب) - ابن شهر آشوب ج 1 ص 237.

³⁶ (المقنعة) ص 456. و(مصباح المنهجد) ص 732.

³⁷ (الارشاد) ج 1 ص 187.

³⁸ (اعلام الورى) ج 1 ص 270.

وخاض المسلمون في موضع دفنه، فقال علي (ع) : «ان الله سبحانه لم يقبض نبياً في مكان الا وارتضاه لرمسه فيه، واني دافنه في حجرته التي قبض فيها» فرضي المسلمون بذلك.

وحُفِرَ لحد رسول الله (ص). ودخل امير المؤمنين (ع) والعباس والفضل وأسامة بن زيد ليتولى دفن رسول الله (ص). فنادت الانصار من وراء البيت : يا عليّ إنا نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله (ص) ان يذهب. أدخل منا رجلاً يكون لنا به حظّ من مواراة رسول الله (ص)، فقال : «ليدخل أوس بن حوي» وهو رجل من بني عوف بن الخزرج وكان بدرياً، فدخل البيت. وقال له علي (ع) : «انزل القبر» فترل، ووضع علي (ع) رسول الله (ص) على يديه ثم دلاه في حفرته ثم قال له : «اخرج». فخرج ونزل علي (ع) فكشف عن وجهه (ص) ووضع خدّه على الارض موجّهاً الى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبّن³⁹ وهال عليه التراب»⁴⁰.

وانتهزت الجماعة الفرصة لاشتغال بني هاشم برسول الله (ص) وجلس علي (ع) للمصيبة فسارعوا الى تقرير ولاية الامر. واتفق لابي بكر ما اتفق، لاختلاف الانصار فيما بينهم، وكراهة القوم تأخير الامر الى ان يفرغ بنو هاشم من مصاب رسول الله (ص) فيستقر الامر مقرّه، فبايعوا ابا بكر لحضوره.

وروي : ان ابا سفيان جاء الى باب رسول الله (ص) فقال :

بني هاشم لا يطمع الناس فيكم *** ولاسيما تيم بن مرة او عديّ
فما الامر إلا فيكم واليكم *** وليس لها إلا ابو حسن عليّ
أبا حسن فاشدد بها كفّ حازم *** فإنك بالامر الذي يرتجى ملي

ثم نادى باعليّ صوته : يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أرضيتم ان يلي عليكم ابو فصيل الرذل بن الرذل ؟ اما والله لئن شئتم لأملأئها عليهم خيلاً ورجالاً. فناداه امير المؤمنين (ع) : «ارجع ياأبا سفيان، فوالله ماتريد الله بما تقول، وما زلت تكيد الاسلام واهله، ونحن مشاغيل برسول الله (ص)، وعلى كلّ امرىء ما اكتسب وهو وليّ ما احتقب»⁴¹.

الدلالات العلمية للنصوص

حملت وفاة خاتم الرسل (ص) دلالات اجتماعية مهمة لا بد من الوقوف عندها والتأمل في مضامينها. فالاحداث الاجتماعية كانت تسير على عكس الاتجاه الذي سار عليه حادث الوفاة. فقد كانت رغبة

³⁹ اللَّبْنَةُ: التي يُبني بها، والجمع: لَبْنٌ.

⁴⁰ (الارشاد) ج 1 ص 188.

⁴¹ (الارشاد) ج 1 ص 189.

النبي (ص) واضحة في ضرورة استلام علي (ع) مقاليد الامور الدينية والاجتماعية في المجتمع الاسلامي الجديد. ولكن نظرة ثاقبة لتلك الاحداث التي اعقبت الوفاة تبين لنا الحقائق التالية :

1 — لم تكن وفاة رسول الله (ص) حدثاً مفاجئاً، فقد استمر المرض الذي اشتكى منه (ص) شكواه الذي توفي فيه اياماً عديدةً. وكانت تلك الايام الاخيرة المتصلة بالوفاة باعثاً على تهيئة الرأي العام بقرب وقوع الحزن الاعظم برحيل نبي الرحمة (ص) الى عالم الغيب والملكوت. وكانت تعليماته (ص) في إبعاد من كان يطمح بالخلافة الى جيش أسامة، والاعلان بمن كانت له وصية او عهد او دين عنده (ص) واخباره به ليوفيه اياه، وطلبه (ص) بالدواة والكتف ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده ابداً، والطلب من علي (ع) بمواراته في رسمه عند موته (ص)، كلها تدلُّ على ان رسول الله (ص) كان قد تنبأ بوفاته تنبؤاً صادقاً. وهذا يعني ان الرأي العام كان يلمس ويحس ويرى وجود خليفة كفوء يخلف النبي (ص) خلافة طبيعية بعد وفاته (ص).

2 — ان تأخر القوم، وفيهم ابو بكر وعمر عن الالتحاق بجيش أسامة والتبجح بمختلف الحجج كان عصباناً واضحاً لاوامر رسول الله (ص)، وقول عمر بن النبي (ص) كان يهجر وقت سؤاله عن الدواة والكتف ليكتب لهم كتاباً، وتقديم حفصة وعائشة لابيها عمر وابو بكر عندما اراد (ص) اخيه وصاحبه واعراضه عنهما، كل ذلك يدلُّ على ان الطموح نحو خلافة رسول الله (ص) كان طموحاً حقيقياً احبب عيون الاطراف المتصارعة من رؤيتها الواقع.

3 — كان دور علي (ع) في الايام الاخيرة من حياة رسول الله (ص) متميزاً واخلاقياً الى ابعد الحدود، عبر ايداع اسراره وقبول وصيته وانجاز عدته وقضاء دينه. وفاضت روح النبي (ص) وهو في حجر علي (ع). فهو (ع) آخر من رآه وآخر من سمع وصاياه وتعليماته. كما كان رسول الله (ص) اول من رأى علياً (ع) بعد ابويه ام طالب وابو طالب (رض) يوم ولد في الكعبة. وهكذا استمرت العلاقة التاريخية بين رسول الله (ص) والامام (ع) مدة ثلاثة وثلاثين عاماً .

4 — قام الامام (ع) بتغسيل النبي (ص) وتكفينه ودفنه والصلاة عليه، بينما انشغل القوم فيمن يخلفه (ص) وهم يعلمون علم اليقين ان علياً (ع) كان صاحب الامر بعد رسول الله (ص).

وفاة النبي (ص): الابعاد والمعاني

اتسمت الوفاة بصور اجتماعية وروحية وسياسية تحمل ابعاداً عميقة في المحتوى والاطار. فكانت الوفاة تخص اموراً خطيرة كالوحي، ووظيفة الجماعة، وطبيعة المقعد الجديد الذي سيشغل مقعد النبوة المفقود، وطبيعة الواجب الشرعي والاخلاقي للامة، والازمة الاجتماعية التي يُحتمل ان تخلّفها الوفاة.

1 – وفاة آخر الانبياء (ص) على الارض:

تناول الدين قضية الموت بكثير من العناية والاهتمام، وقدّم الاسلام قضية الانتقال من عالم الشهادة الى عالم الغيب، والعبور من الحياة الدنيا الى الحياة الآخرة بصورة القضية التكوينية التي تشمل جميع الخلق دون استثناء. فقال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...) ⁴².

الا ان موت حامل الرسالة السماوية ومبلّغها الصادق الامين (ص) يعدُّ حدثاً عظيماً هائلاً، لانه قد يولد شكوكاً حول الرسالة عند غياب قائدها. وقد تنبأ الذكر الحكيم بضخامة الحدث، فقال: (وما محمد الا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل اِذَا مَاتَ او قُتِلَ انقلبتم على اعقابكم...) ⁴³.

أ – مقتضيات الوفاة :

ومن اجل ادراك آثار الوفاة لا بد من النظر الى الوضع الاجتماعي لمجتمع المدينة عبر ثلاثة اصعدة :

الاول : الصعيد الغيبي : وهو يعني توقف الوحي توقفاً تاماً عن الاتصال بالارض، واكتمال مقاصد القرآن الكريم في هداية الانسانية المعذبة في ذلك الزمان بل في كل زمان وحتى يوم القيامة. وكان يعني توقف عصر النبوة، فقد كان محمد بن عبد الله (ص) خاتم انبياء السماء.

الثاني : الصعيد الاجتماعي : ويعكس انقطاع دور النبوة التي يوحى لها، وبداية دور الامامة الموصى بها من قبل رسول الله (ص). فكان المفترض ان يختبر المجتمع عصراً جديداً في الادارة الدينية رائده علي بن ابي طالب (ع). وكان اول اختبار لعلي (ع) في ذلك هو كيفية الصلاة على جسد النبي الطاهر (ص)، فاشار (ع) عليهم بان رسول الله (ص) إمامنا حياً وميتاً، فاستجابوا له وصلى الناس صلاة الميت عشرة عشرة. وكان الاختبار الثاني هو عندما خاض المسلمون في موضع دفنه، فقال (ع) : «ان الله سبحانه لم يقبض نبياً في مكان الا وارتضاه لرمسه فيه، واني دافنه في حجرته التي قبض فيها». واستجاب له المسلمون في ذلك ايضاً. ولاشك ان هذين الاختبارين من الاختبارات الفقهية الشرعية التي لا ينهض باعبائها الا من كان كفؤاً لها.

الثالث : الصعيد الشخصي : وهو اختيار رسول الله (ص) الرفيق الاعلى على الرجوع الى الدنيا. وهو اختيار يثبت نبوة المصطفى (ص) ووجهه للقاء الله عز وجل.

وبطبيعة الحال، فان رحيل النبي (ص) عن عالمنا الدنيوي هزّ التركيبة الاجتماعية للمجتمع الاسلامي في ذلك الزمان. فقد كان الناس حديثي عهد بالاسلام، ولم يفهموا معاني الموت بعد. بل كانت الجذور القبليّة

⁴² سورة العنكبوت: الآية 57.

⁴³ سورة آل عمران: الآية 144.

قبل الاسلام لا تزال سارية في نفوس بعض القوم ممن دخلوا الاسلام ظاهراً، وقلوبهم غير مهياً للدين.

ب - التجربة الخطيرة:

ومن هنا كانت وفاة رسول الله (ص) اخطر تجربة مرت على المجتمع الوليد. فبعد كل التضحيات التي قدمت من اجل الدين، وبعد كل وصايا الاستخلاف التي اوصاها رسول الله (ص) قبل خروجه الى تبوك، وتبليغ سورة براءة، ويوم الغدير، وحثهم على الخروج مع جيش أسامة، ابى القوم الا ان يسلكوا سلوكاً مخالفاً لارادة النبي (ص) والرسالة الدينية.

ومن الطبيعي، فان وفاة النبي (ص) ابرزت امرين متلازمين مع طبيعة الاشياء :
الاول : حالة الاحتضار التي مرّ بها (ص). فقد تمثّلت بشكواه (ص) وضعفه وحالات الاعماء التي عانى منها (ص)، ووصاياه التي اوصى بها.

الثاني : وظيفة الجماعة والزمامم تجاه موت النبي (ص). وقد كان الامام (ع) ملازماً له (ص) في مرضه حتى وفاته. وتولى بعد ذلك تغسيله والصلاة عليه ودفنه. فمثّل علي (ع) دور الامة في هذا الواجب الكفائي، واماط عنها العقاب الالهي.

وهاتان الحالتان كانتا، في النظر العرفي، طبيعتان ولم تخرجا عن مجاري الطبيعة. الا ان الاهم في وفاة خاتم الانبياء (ص) هو ان غياب شخصية بهذا الوزن وبتلك الاهمية الدينية، كان يهدد النظام الديني في المجتمع. ذلك ان دور النبوة الاجتماعي والديني لا يمكن تعويضه الا بدور مقارب من النبوة، حتى يستقر الدين في النفوس والقلوب استقراراً راسخاً الى اجل معلوم. فكانت الامامة الشرعية لعلي بن ابي طالب (ع) هي اقرب الادوار وانسبها لسد الفراغ الذي تركه موت رسول الله (ص). ولاشك ان الخلافة السياسية والدينية لعلي (ع)، والارث الذي تركه رسول الله (ص) لفاطمة (ع)، وعلاقة الدم بين رسول الله (ص) والعترة الطاهرة كلها حاولت نقل المجتمع الاسلامي في عصر ما بعد رسول الله (ص) نقلة يسيرة تحافظ على مكتسبات الرسالة واهدافها ووسائلها الشرعية.

ومن هذا المنطلق نفهم ان تهيؤ النبي (ص) للموت واستقباله استقبالاً حسناً كما انه يدلّ على نبوته (ص) ويقينه بالله سبحانه وتعالى، فانه يدلّ ايضاً على اهتمامه بالمجتمع الديني الذي سيركه. فكانت اهم مقدمات الموت عند رسول الله (ص) هو وصيته بالخلافة للامام (ع)، وحثّه للبعض ممن كان يطمح لها بالالتحاق بجيش اسامة. والوصية في تلك الحالة كانت تعني تأكيداً على منهج مختار ينبغي ان يستمر بعد وفاة الموصي. وبمعنى آخر ان الوصية لعلي (ع) بالخلافة كانت تكييفاً شرعياً لتقلبات الحياة الاجتماعية بعد رحيل

النبي (ص). ومعنى ثالث انها كانت تخطيطاً لآثار ما بعد موت رسول الله (ص). وهذا يعني ان المصطفى (ص) لم يكن قلقاً على مصيره بقدر ما كان قلقاً على مصير الامة التي سيؤول امرها الى ضياع إن هي لم تلتزم باوامره ووصاياه.

فكانت القضية الجوهرية التي واجهت المجتمع بعد وفاة شخصية سماوية عظيمة كشخصية النبي (ص) هي : من الذي سيحتل دوره الاجتماعي والارشادي ؟ ومن الذي سيؤدي وظيفته الاجتماعية والدينية او يقترب من اداء تلك الوظيفة ؟ فلسفياً يحاول المجتمع بعد وفاة خاتم الانبياء (ص) استمرار بناء مؤسسات النظام الاجتماعي ولكن بدون وجود النبي (ص)، وهنا ينبغي ان يتسلح الخليفة الموصى له بالوسائل التي تسمح له باستمرار البناء. فالوصية بالاستخلاف خلال غزوة تبوك، والغدير، ووصاياه (ص) وقت الاحتضار كانت تحاول ان تسلح المجتمع المدني الاسلامي بالصور والرموز المناسبة من اجل مرحلة ما بعد النبوة (ص). وكانت تلك الوصايا تحاول ان تضع مؤشرات شرعية لسلوك الزامي ناضج للجماعة يلحق عصر الامامة بعصر النبوة. ومن هنا كان التفريق بين الابعاد الشخصية لوفاة النبي (ص) والابعاد الاجتماعية والدينية لهذا الموضوع الخطير امراً مهماً للغاية.

2 – واجبات الجماعة تجاه وفاة النبي (ص):

يُنترع الواجبُ من الانسان كما يُنترع الذين من المديون. فللواجب صفة قانونية «شرعية» واخلاقية واجتماعية ملزمة. وقد كان واجب الجماعة تجاه النبي (ص) وقت الاحتضار، والوفاء، وما بعد الوفاة هو تنفيذ وصيته بالالتحاق بجيش أسامة، والاقرار لعلي (ع) بالولاية، وعدم ترك جسد النبي (ص) دون عناية بعد وفاته. وهي مهام شرعية واجتماعية خطيرة كانت تساعد المسلمين على صيانة دينهم ومبدأهم لو كُتِب لها النجاح. ولذلك قسّمنا واجب الجماعة تجاه وفاة رسول الله (ص) الى قسمين : الواجب الشرعي والواجب الاخلاقي.

أ – الواجب الشرعي:

فعندما يصدر الشارع امراً من واجب او منع، فعلى المكلفين التطبيق. فالقانون الشرعي يلحظ المصلحة والملاك، ويعاقب على المعصية ويثيب على حسن الطاعة. وقد لمسنا ان التكليف الشرعي يأمر المسلمين جميعاً بطاعة رسول الله (ص)، فقال تعالى في محكم كتابه : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم...)⁴⁴ ، (من يطع الرسول فقد اطاع الله...)⁴⁵ ، وبالضرورة

⁴⁴ سورة الاحزاب: الآية 36.

وعندما امرهم رسول الله (ص) بامرة الولاية لعلي (ع) في قوله (ص) : «من كنت مولاه فعلي مولاه» كان واجب الجماعة الطاعة التامة لذلك الواجب الشرعي. والا، فما معنى تجاهل ذلك الامر اذا كان من قضاء الله وتبليغ رسوله غير المعصية ؟ ألم يكن انتهاكاً لحزمة الدين والرسالة السماوية ؟ ولكن لم تكن تلك المعصية يتيمة في باهما.

سجل المعاصي الشرعية :

بل كان عدم الالتحاق بجيش أسامة معصية اخرى تضاف الى سجل المعاصي التي ارتكبت في تلك الفترة الحساسة من عمر الدين. وكان اجتماع السقيفة وما دار فيها من مشاحنات وصراع اجتماعي، معصية ثالثة.

وبكلمة، فان معصية القوم لواجبهم الديني الذي كان يقتضي عدم مخالفة رسول الله (ص)، والتشبيث بمختلف الوسائل من اجل سلب الخلافة من اهلها الشرعيين كان من اعظم المخالفات في تأريخ الاسلام. بل ان تأثيرها كان بحجم الفرار من المعارك الكبرى في الاسلام في أحد وخير وذات السلاسل وحُنين ونحوها. اذن، فان مباني «التكليف الشرعي» تعتبر المخالف مذنباً. اي ان الذي يعصي التكليف الشرعي انما يرتكب ذنباً يستحق عليه اللوم والعقاب. والذين خالفوا وصية رسول الله (ص) يدخلون في تلك الدائرة، وهي دائرة المخالفة الشرعية والمعصية.

ولاشك ان التكليف الشرعي يتطابق تماماً مع معنى الالتزام الشرعي. فالواجب هو اللازم، والالتزام يعني الوجوب. نعم، ربما يعني الواجب تكليف على الانسان من الخارج، بينما يعني الالتزام الزام المرء نفسه باداء التكليف فهو تكليف من الداخل.

وفي ضوء ذلك، فان الواجب يقيد المكلف، ولا يحرره الا بادائه. وقد كان المسلمون جميعاً مكلفون باداء ما امرهم به رسول الله (ص) في وصاياه. خصوصاً تلك المتعلقة بالولاية الشرعية. بل ان كل الدلائل كانت تشير الى ان هؤلاء القوم كانوا قد فهموا الواجب «ولاية علي (ع)» وعرفوه وفقهوه، ولكنهم لم يلزموا انفسهم به.

ولو حاول البعض الغاء ذلك التكليف الشرعي، لنوقش بان كل دين او رسالة سماوية تفرض واجبات والزامات على المكلفين. ولا محيص من ادائها كاملاً ودون تردد او تأخير. وقد كان واجب الالتزام بوصايا رسول الله (ص) فيما يخص ولاية الامام (ع) واضحاً ابعد الوضوح، ومكرراً بحيث يفهمه القريب والبعيد.

⁴⁵ سورة النساء: الآية 80.

فكانت مخالفته معصية واضحة ضد تكاليف الشرع. وقد قال تعالى : (...ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللاً مبيناً)⁴⁶.

وهكذا سارت الامور الاجتماعية والسياسية على عكس ما اراده رسول الله (ص). وانتكست المسيرة الاسلامية انتكاسة عظيمة انعكست آثارها الخطيرة في القرون التي تلت الوفاة.

دواعي ارتكاب المعصية :

وقد يتساءل متساءل : كيف تم لتلك المعصية الكبرى ان تحصل ؟ والجواب على ذلك يتم عبر ملاحظة النقاط التالية :

اولاً : ان فشل القوم في تنفيذ وصية رسول الله (ص) كان يُلاحظ فيه عدم الخوف من النتائج المترتبة على المعصية. فالامام (ع) والخواص من بني هاشم كان يهتمهم حفظ بيضة الاسلام وعدم سفك الدماء، وهذا ليس غريباً فقد كانوا يضعون الاسلام ومصالحته العليا فوق كل شيء، فهم الصفوة المتصلة بالسماء. فالمعصية لم يكن يخشى منها اذى من بني هاشم. ولم يكن يخشى منها عقوبة دينية دنيوية.

ثانياً : ان تلك المخالفة لوصايا رسول الله (ص) كان يُنظر لها على اساس انها قضية تحمل التبرير. فالماكنة الاعلامية للسلطة الجديدة تستطيع ان تدعي بان المصلحة العليا للاسلام اقتضت اقصاء علي (ع) من الخلافة الشرعية، وتستطيع ان تدعي بان علياً (ع) كان شاباً لا يستطيع ادارة دفة الحكم، وفي الامة العديد من الشيوخ، وتستطيع ان تدعي بان الخليفة الاول — على اساس قياس المفاضلة — افضل الناس وازكاهم واقربهم الى رسول الله (ص). وعلى ضوءه يُحذف اسم علي (ع) من الساحة الاجتماعية.

ولذلك، فان تجريمها قضية مستحيلة، خصوصاً في غياب الوحي الذي كان يكشف سرائر الناس، كما حصل في سورة التوبة بعد غزوة تبوك فكشف اسرار المنافقين والذين تخلفوا عن رسول الله (ص) في غزوته الشاقة تلك.

وكان التخلف عن الالتحاق بجيش أسامة قد حمل تبريرين يمثلان لسان القوم. احدهما يقول : «اني كنتُ خرجت ثم عدتُ لاحدث بك عهداً». والآخر يقول : «اني لم اخرج لاني لم أحب ان أسأل عنك الركب». وتلك التبريرات تكشف عن حجم المعصية وابعادها السياسية والاجتماعية.

ثالثاً : ان الشرط الضروري لمعرفة الحقيقة كان يمكن — في تقدير القوم — تغييره او تعديله او حذفه من الساحة الاجتماعية. واقصد بالشرط الضروري لمعرفة الحقيقة هو علي (ع) وفاطمة (ع). وقد أُستخدمت

⁴⁶ سورة الاحزاب: الآية 36.

معهما اساليب في غاية القسوة من اجل اجبارهما على الرضوخ للامر الواقع. ومنها اكراه الامام (ع) بقوة السيف على القبول بالبيعة للخليفة الاول، وانكار حق فاطمة (ع) في فدك وهتك حرمة بيت النبوة (ع).

ب — الواجب الاخلاقي:

والواجب الاخلاقي ينحصر في دائرة اضيق من الواجب الشرعي. ذلك ان الواجب الشرعي يدعو الانسان مثلاً الى اعطاء الفقير بعضاً مما يملكه المعطي لا كل ما يملكه. ولكن الواجب الاخلاقي يدعو الانسان الى اعطاء كل ما يملكه للفقير. هنا انحصر الواجب الاخلاقي بالصفوة من الناس، بينما عمّ الواجب الشرعي كل مكلف. ولو كان القوم قد تحلّوا بالواجب الاخلاقي فضلاً عن الواجب الشرعي لقدموا وصية رسول الله (ص) في استخلاف علي (ع) على كل مصالحهم الاجتماعية. ولكن كان الالتزام الاخلاقي ضعيفاً عندهم، فما ان توفي رسول الله (ص) حتى اصبحت وصيته (ص) في خبر كان، وكأن شيئاً لم يحصل.

من مقتضيات الواجب الاخلاقي:

وهنا افرز سلوكهم بعد وفاة النبي (ص) ثلاثة امور على صعيد الواجب الاخلاقي:

الاول: ان الواجب الاخلاقي، فضلاً عن الواجب الشرعي، كان يقتضي تنفيذ وصية رسول الله (ص) بحذافيرها دون ابطاء او تأخير. ولكننا لم نرَ اثرًا لذلك الواجب الاخلاقي عندهم.

الثاني: لم يلتزم القوم بالواجب الاخلاقي في تجهيز النبي (ص) ودفنه، مع ان ذلك الواجب كان واجباً شرعياً كفايئاً قام به بنو هاشم. الا ان الالتزام الاخلاقي يدعو المؤمن الى التريث حتى يتم دفن الرسول (ص)، قبل التداول في امر الخلافة.

الثالث: ان الواجب الاخلاقي اعلى درجةً من الواجب التكليفي، بمعنى ان الاول يؤدي خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى من دون تكليف، بينما يؤدي الثاني بدافع التكليف والامر المولوي. ولو افترضنا — نظرياً — ان عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين دفعتهم الى نسيان الوصية، لكان الاجدر بهم ان يقدموا علياً (ع) للخلافة، على سبيل اداء الواجب الاخلاقي. وهو الذي شهد له التأريخ القتالي والعلمي بحسن الادارة والقتال والتفاني في سبيل الدين.

ولاشك ان اداء الواجب الاخلاقي يُضفي على المجتمع الديني انسجاماً بين مختلف قطاعاته وطبقاته وشرائحه. ومن المسلم به ان كسر قواعد القانون الاخلاقي يحطم الشخصية الاخلاقية للمتدينين. ذلك لان الدين يبحث دائماً على اداء الواجبات والمستحبات بدافع الاخلاص لله سبحانه ويدعو للتعامل الاخلاقي بين

الناس. فكان كسر القانون الاخلاقي مرآة لتحطيم الشعور بالذنب ومحاولة قتل النفس اللوامة التي تلوم الانسان على تخريب روح الشريعة.

وهكذا كان، وانكسر الواجب الاخلاقي والشرعي للذان كانا يدعوهم الى رعاية حرمة رسول الله (ص) خلال احتضاره وبعد وفاته (ص). وهنا كانت الوفاة والحزن العظيم مدعاةً لاقتطاف الفرصة نحو الخلافة دون اظهار الحد الادنى من النبل والبحث عن الحقيقة.

3 – دور علي (ع) خلال الوفاة وبعدها:

كان دور علي (ع) في التعامل الاخلاقي مع مختلف الشرائح الاجتماعية خلال وفاة النبي (ص) وبعدها متوقعاً. فمن خلال ما قرأناه في الصفحات الماضية توصلنا الى نتيجة مفادها انه (ع) كان امتداداً لرسول الله (ص) في العلم والتقوى والاخلاق، وكانت فيه بقية من النبوة، الا انه لا نبي بعده (ص). ولذلك كان الدور الذي أنيط بعلي (ع) متميزاً في النوعية والفعالية. فعلى مستوى النوعية، قَبِلَ علي (ع) وصيته (ص)، وواعد بانجاز عدته وقضاء دينه (ص). ولا يقوم بذلك العمل النوعي الا من كان مؤهلاً وصادقاً فيما يقول ويُوعده. وعلى مستوى الفعالية، قام علي (ع) بكل ما يمكن ان يقوم به من الالتصاق بالنبي (ص) في الساعات الاخيرة وتغسيله والصلاة عليه ودفنه (ص). وكان جلوسه (ع) للمصيبة عملاً اخلاقياً ودليلاً على انه كان تراثياً مندكاً في الله سبحانه وتعالى. هذا في الوقت الذي كانت فيه مؤشرات بان القوم سوف يسارعون الى تقرير ولاية الامر قبل ان يفرغ بنو هاشم من مصاب رسول الله (ص). خصوصاً وان العلامات على ذاك الطريق كانت عديدة وواضحة من قبيل تأخرهم عن الالتحاق بجيش أسامة والتقدم للصلاة كائنة للمسلمين وقولهم انه (ص) كان يهجر ونحوها.

ويمكننا ادراك دور الامام (ع) خلال تلك الفترة الحرجة من تأريخ الاسلام من خلال صورتين :
الاولى : توقعات الامة منه (ع) على صعيد الاحكام الشرعية والادارة الاجتماعية، خصوصاً وانه كان نائباً لرسول الله (ص) في الامور الدينية والاجتماعية في اوقات مختلفة من حياته (ص). ولاشك ان الامة تربط في توقعاتها بين شخصية المرشح لذلك المنصب وبين مواقفه العلنية من المشاكل الكبرى التي كانت تواجه الامة. فكانت الامة تتوقع من الامام (ع) ان يحقق العدالة الاجتماعية ويطبق الحدود وينشر الاسلام في المعمورة.
الثانية : سلوكه على صعيد الجماعة. فهو لم يتعامل مع القوم الا بالاخلاق الفاضلة العالية، مع انهم سلبوه حقه ومسؤوليته التي حددها له رسول الله (ص). ونقصد بالتعامل او السلوك هو: فعله وتقريره وقوله (ع) الذي كان مستمداً من فعل رسول الله (ص) وتقريره وقوله.

وبذلك كان دور علي (ع) خلال الحزن الاعظم بوفاة النبي (ص) وبعده دوراً اخلاقياً نابغاً من صميم الدين والرسالة الاخلاقية التي يحملها للبشرية. وكان الامام (ع) ينظر الى المصلحة الاسلامية العليا في تلك المواقف اكثر مما كان ينظر الى ذاته او مصلحته الشخصية.

4 — وفاة النبي (ص) والازمة الاجتماعية :

احدثت وفاة رسول الله (ص) ازمة اجتماعية لان المتغيرات التي اريد لها ان تحتل مواقعها اُبدلت. فقد اُريد للامامة الشرعية ان تكون بديلاً للنبوّة، وهو ما اوصى به رسول الله (ص) لعلي (ع). ولكن الامامة اُقصيت وجاءت محلها الخلافة الدنيوية التي لم تستند على وصية شرعية او تبليغ سماوي. والازمة تعني تغير باتجاهين متعاكسين نحو سياسة معينة، او مشكلة، او موقف. وهو ما حصل بالفعل، فقد كان الاتجاه العلوي يسير نحو ولاية الامام (ع)، بينما كان الاتجاه القرشي يسير نحو ترشيح من كانوا يرون انه مرشح للخلافة. وكانت تلك الازمة نقطة تحول في تأريخ الاسلام. فإن انتصر الاتجاه العلوي اتجه النظام الاسلامي في طريق، وإن انتصر الاتجاه القرشي اتجه ذلك النظام في طريق آخر. وشاء القدر ان ينتصر الاتجاه القرشي في تلك المعركة الاجتماعية التي ترجع جذورها الى الصراع الدائر بين الجاهلية والاسلام. وبكلمة، فان تلك الازمة التي خطط لها الطامحون بالخلافة قد هدت اهداف الدين وبرنامجه السياسي في بناء المجتمع الديني العالمي. ذلك ان اقضاء الامام (ع) عن موقعه الطبيعي في الادارة الدينية والاجتماعية فتح الباب لكل الذين حاربهم الامام (ع) في معارك الاسلام الكبرى بالرجوع الى سدة الحكم.

عناصر القرار المخالف :

وبطبيعة الحال فان الازمة الاجتماعية التي حصلت كان منشؤها صناعة قرار مخالف لقرار السماء. فبعد ان تجاهلوا قرار رسول الله (ص) في تولية علي (ع)، اتخذوا قراراً مناوئاً مستنداً على ثلاثة عناصر :
الاول : تشخيص مصدر الحدث. وهو الايمان بان السلطة في الاسلام يمكن ان تكون دنيوية وليست دينية بالضرورة. ولذلك تباطىء القوم في الذهاب الى جيش أسامة واسرعوا الى السقيفة عند وفاة النبي (ص). وهذا الانتقال السريع في نمط التفكير عرض الامة الى ازمة شديدة.

الثاني : ضيق الوقت الذي أُتخذ فيه القرار. فبينما كان علي (ع) مهتمٌ بالمصيبة العظمى، سارع القوم الى اتخاذ القرار باسرع ما يمكن. ذلك لان قرار من هذا القبيل يحصل في ظروف استثنائية وفي حالة مخالفة لإرادة رسول الله (ص)، كان يرشح الوضع الاجتماعي العام لعدم استقرار. ولذلك سارعوا في اتخاذ القرار باقصر وقت

زمي ممكن.

الثالث : اهمية القيمة السياسية لذلك القرار. فكان تنحية علي (ع) بتلك الصورة المفجعة ومحاولة ترسيخ موقع الخلافة في قريش ومنعها من بني هاشم، قراراً سياسياً ذو قيمة بالنسبة للطامحين بالخلافة. لانه كان يعني ان الحكم سيكون بايديهم وبايدي احفادهم لقرون مديدة قادمة. فيكون قرار من هذا القبيل ذو قيمة سياسية عظيمة.

وفي ضوء ما ذكر، نلمس التفاوت الديني بين قرار رسول الله (ص) بتعيين علي (ع) خليفة بعده وبين قرار السقيفة بتولية غيره. فكان ذلك الاختلاف في التفكير يعكس تفاوتاً هائلاً في درجات نظام اتخاذ القرار. فبينما كان القرار الاول مبنياً على اصول الدين ووظيفة التكليف السماوي، كان القرار الثاني مبنياً على اساس القبليّة وجذور ما قبل الاسلام.

ولذلك كانت الازمة تهدد اركان الدين واهدافه، وعناصرها قابلة للاشتعال. ذلك لانها كانت تحمل صراعاً بين الدين والقوى التي تريد الاستئثار به. والصراع يبدأ ويستمر هنا لان كلا الطرفين المتصارعين يحملان اهدافاً متعاكسة، وغير منسجمة، ولا متطابقة.

ازمة الخلافة وازمة الحكومة :

ان الازمة التي ولدها عصيان اوامر النبي (ص) خلال ايامه الاخيرة لم تكن ازمة افراد، بقدر ما كانت ازمة حكومة بما فيها المؤسسة السياسية والعسكرية والاقتصادية. فمهما كان التبرير السياسي والتفسير التاريخي للاحداث، فان التأريخ لا يسمح لحدث من هذا القبيل وهذا الحجم بالمرور دون اعتراض او ادانة مباشرة او غير مباشرة. فقد خربت «السقيفة» البنيان السياسي الديني الذي بناه رسول الله (ص) في دولته الفتية، وخربت البناء العسكري ومنها ما حصل من اختلافات في جيش أسامة، واقضاء القائد عن قيادة الجيش بعد اربعين يوماً فقط من وفاة رسول الله (ص)، وخربت فكرة العدالة الاجتماعية التي بشر بها الاسلام للبشرية جميعاً خصوصاً خلال حكم الخليفة الثالث.

وهنا جملة نقاط لا بد من ملاحظتها :

1- لا يمكن تفكيك السلطة التشريعية في عصر النبوة او الامامة عن السلطة التنفيذية. فالنبي (ص) كان يصدر الحكم الشرعي الذي علمه بالوحي وينفذه ويأمر بتنفيذه. وكان للامام (ع) ما كان للنبي (ص)، الا انه لا نبي بعده ولا وحي، كما قال (ص) لعلي (ع) خلال غزوة تبوك : «اما ترضى ان تكون مني بمنزلة

هارون من موسى، غير انه لا نبي بعدي»⁴⁷. فاهداف الامام (ع) كانت تمثل ديمومة اهداف النبوة وبرنامجها في اصلاح ما فسد عند الناس. اما اذا كان الخليفة لا يمتلك تلك الميزة التشريعية، فعندها يصبح مجرد عنصر تنفيذي يتجرأ على الله سبحانه في اصدار الاحكام الشرعية. ويعود مصداقاً لقوله تعالى: (قل الله اذن لكم ام على الله تفترون)⁴⁸.

2- يستطيع النبي (ص) او الامام (ع) تحديد المصلحة والمفسدة والملاك في الحروب الابتدائية التي يشنها الاسلام ضد الشرك. اما الخليفة الذي هو مجرد منفذ اجرائي وغير مخول لاصدار الحكم الشرعي، فانه لا يستطيع تحديد ذلك. خصوصاً وان في المسألة دماء تُسفك واعراض تُنتهك ومال يُسلب.

3- ان تقمص السلطة لمن لا اهلية له شرعاً يعدُّ ظلماً اولياً يؤدي الى ظلم اعظم بالرعية. وحتى لو افترضنا ان آثار ذلك الظلم لم تظهر في زمن الخليفين الاول والثاني، الا ان آثاره ظهرت بوضوح في عهد الخليفة الثالث. وهذا يعني ان اغتصاب السلطة وسلب المسؤولية الشرعية من اهلهما يعني ظلماً تظهر آثاره على المجتمع بعد فترة من الزمن، قد تطول او قد تقصر.

وقد تنبأت فاطمة الزهراء (ع) بذلك، فقالت في احدي خطبها للنساء: «...اما لعمر الهكن⁴⁹ لقد لقت⁵⁰. فنظرة ريشما تنتج⁵¹، ثم احتلبوا طلاع العقب⁵² دماً عبيطاً⁵³، وذعافاً ممقراً⁵⁴. هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب⁵⁵ ما اسس الاولون...»⁵⁶.

4- ان سلطة الامام (ع) سلطة مسؤولية وعدالة واحكام شرعية واخلاق، بينما لم نلاحظ ذلك في سلطة الذين كانوا اقرب الى الاجرائية والتنفيذ منهم الى التشريع.

وبذلك كانت الازمة التي ولدها عصيان امر النبي (ص) ازمة حكومة وليست ازمة افراد. فالحكومة التي تشكلت بعد وفاته (ص) لم تكن تملك التحويل الشرعي لاصدار الاحكام والوامر والنواهي الشرعية. فكانت تلك الازمة من اخطر الازمات التي عصفت بالاسلام ودوره في الحياة الاجتماعية.

⁴⁷ (الخصائص) ص 14. رواها النسائي باسناده عن سعد بن ابي وقاص.

⁴⁸ سورة يونس: الآية 59.

⁴⁹ أي: اما وحق بقائه.

⁵⁰ أي: حبلت

⁵¹ أي: نظرة تأخير ثم تلد.

⁵² أي: ملئوه.

⁵³ أي: دماً طرياً.

⁵⁴ ذعافاً ممقراً: سُماً مرأً.

⁵⁵ غب: عاقبة.

⁵⁶ (بلاغت النساء) ص 32.